

ثورة الشباب

توفيق الحكيم

SS

توفيق الحكيم

ثورة الشباب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- شهرزاد (مسرحية) ١٩٣٤
- يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- أشعب (رواية) ١٩٣٨
- عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
- حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل) ١٩٤٣
- الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

SS

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ــ ترجمة أبا إيبان ــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

مقـدمـة

كل ثورة دليل حيوية ... والشباب هو الجزء الحيـوى فى الجسم فلا عجب أن يقوم بالثورة الشباب . وقلما تكون هناك ثورة شيوخ ، لأن الشيخوخة هى تناقص الحيوية .

والثورة ما دامت متصلة بالحيوية فلابد أن تكون منشطة لهذه الحيوية ومجددة لها ، وإلا اتخذت اسما آخر هو « الهوجة » .

والفرق بين « الثورة » و « الهوجة » هو أن « الهوجة » تقتلع الصالح والطالح معا ... كالرياح الهوج تطيح بالأخضر واليابس معا ، وبالشجرة المثمرة والشجرة الصفراء جميعا . أما « الثورة » فهى تبقى النافع وتستمد منه القوة .. بل وتصدر عنه أحيانا ، وتقضى فقط على البالى المتهافت ، المعوق للحيوية ، المغلق لنوافذ الهواء المتجدد ، الواقف فى طريق التجديد والتطور .

ولكن المسألة ليست دائمًا بهذه البساطة . فالثورة والهوجة

تختلطان أحيانا ، إن لم يكن فى كل الأحيان . فالثورة كى تؤكد ذاتها وتثبت أقدامها تلجأ إلى عنف الهوجة لاقتلاع كل ما كان قبلها .. وتجعل بداية كل خير هو بدايتها ، وتاريخ كل شىء هو تاريخها ...

ولا يتغير هذا الحال إلا عندما تشعر الثورة بصلابة عودها وتوقن أنه قد أصبح لها وجه واضح وشخصية متميزة ومكان راسخ فى التاريخ العام ... عندئذ تنبذ عنها عنصر الهوجة وتأنف منه ، وتعود بكل اطمئنان إلى تاريخ الأمة العام لتضع كل قيمة فى مكانها الصحيح ، وتضع نفسها فى الحجم المعقول ، داخل إطار التسلسل الطبيعى لتطور أمة ناهضة ...

إذا عرفنا ذلك ، كان من الميسور أن نفهم حركات الأجيال الجديدة ، أو ما يسمى اليوم بثورة الشباب .

ما من أحد منا لم يشعر فى شبابه برغبة ما فى الانطلاق عبر بعض القيود ... ذلك مظهر من مظاهر الحيوية والحركة والتحرر وتأكيد الذات . ولكى نؤكد ذاتنا ونبرز شخصيتنا الخاصة كان لابد لنا من الانفصال عن شخصية السلف ... ووسائلنا فى ذلك

مفتعلة كوسائل كل ثورة فى صباها ؛ وهى الرفض لكل ما يقوله السلف .

ولكن فى أيامنا نحن لم تكن الهوة سحيقة كما هى اليوم بين الآباء والأبناء . فلم يكن العالم قد شاهد بعد حروبا عالمية ، ولا مخترعات جهنمية ، كان كل شيء مستقرًا فى قوالب جامدة وصناديق مختومة ، والدنيا هادئة نائمة تغط فى عاداتها المرعية وتقاليدها المقدسة .

ولكننا اليوم فى عصر مستيقظ ، يموج بالتغييرات المستمرة والتحركات الفكرية والعلمية والسياسية التى تسبق كل خيال ، ما من شيء راكد ، أو يسمح له بالركود ... وما من شيء مقدس ، أو يسمح له بعدم الخضوع للبحث والمناقشة .

ووسائل الاتصال بين العالم من إذاعات وتلفزيونات وأقمار صناعية ، قد جعلت الأفكار فى تحررها وجموحها وسموها وانحطاطها فى متناول كل شخص .

مثل هذا العالم اليوم ، ما تأثيره على الشباب الذى يريد أن يؤكد ذاته ويكون له رأى فى تحقيق شخصيته ودور فى تشكيل المستقبل ؟.

ذلك كله يجب أن نعيه ونضعه فى اعتبارنا ونحن نواجه الشباب اليوم ، ومن واجبنا أن نبصره : أنه إذا كان من حقه أن تكون له ثورة ، فواجبه أن يعرف الفرق بين الثـورة والهوجة .. عليه أن يدرس ما يبقيه ويحافظ عليه ويضيف إليه ، وما يلقيه وينبذه ويطرحه بعيدًا عن طريق نموه وتطوره وزمنه الجديد .

والحذر كل الحذر أن نواجه الشباب فى كل حين بالوعظ والإرشاد ، أو أن نترك الجوهر ونحادثه دائمًا عن المظهر ، ونظن القيامة قد قامت لاختياره شكلا من أشكال اللبس أو نمطًا من أنماط شعر الرأس . وننسى أننا فى شبابنا فى مطلع القرن كان الشباب حتى من المعممين يختارون ألوان الجبب والقفاطين زاهية فاقعة من اللون الليمونى الفاتح إلى البنفسجى والفستقى ، أما الشباب من المطربشين فكانوا يتبعون فى شكل سراويلهم كل جديد مستحدث ، من البنطلون الضيق اللاصق ، إلى المتسع « الشارلستون » إلى المتخذ صورة القمع . وكانت السوالف تارة والشوارب المدببة تارة أخرى ، ثم بدعة الشارب الحليق التى قيل يومئذ إنها تخنث وتشبه بالنساء ، فأصبحت اليوم هى القاعدة

العامة السائدة بين الكبير والصغير .. كل هذه أشياء لا يليق بعصرنا الحاضر أن يعيرها اهتمامًا .. وإن الكبار عندما يجعلون منها قضية يظهرون أمام الشباب بمظهر السخافة والتفاهة ، ويفقدون فى الحال الثقة والجدية والاعتبار ..

نحن الآن فى عصر الفكر المتحرك ، ولا أمل فى مواجهة ثورة الشباب إلا بوضعها فى إطار الفكر والعقل والجوهر .

فلنترك للشباب حريته فى اختيار الشكل الخارجى والداخلى لحياته كما يفرضها عليه زمنه الجديد ، ولا نطالبه إلا بشيء واحد : هو الإحاطة المتعمقة بحصيلة هذه الحضارة التى أوجدته ورضع من لبانها ، ليحافظ وينمى ويضيف إلى خير ما فيها ، ويطرح ويغير ويمحو ما فيها من شر وزيف .. لأن مستقبل هذه الحضارة فى يده هو وحده .. وصورتها غدًا سوف تكون كما يتصورها هو ويصورها ، فلتكن إذن للشباب ثورة ..

ولكن يجب أن يذكر دائمًا الفرق بين « الموجة » ، و « الثورة » ..

توفيق الحكيم

حلقات الأجيال

« الأجيال تتماسك فى الأمم ، كما تتماسك

حلقات السلسلة الفقرية فى الأجسام » .

الدنيا حلقات !... كل جيل يجب أن يمد يده إلى الجيل الذى يليه !.. إذا تم ذلك فى أمة فقد صح كيانها واستقام ، شأن الجسم السليم بسلسلته الفقرية المتماسكة ، وإذا لم يتم ذلك فنحن أمام كائن سقيم ، انفصلت حلقات وجوده وانفصم عمود ظهره ، ولم يعد يصلح للبقاء !.. وإن كان من واجب القادة أن يرسلوا البصر إلى خمس سنوات أو عشر إلى الأمـام ، يعـدون خلالها برامج الإنتـاج ؛ ـــ فإن من واجبهم أيضًا أن يعدوا الرجـال الذيـن يخلفونهم فى مراكز القيادة !.. بهذا لن تكف عجلة التقدم عن المسير !...

والإنتاج الفكرى ككل إنتـاج ـــ يجب ألا يشذ عن هذا

(ثورة الشباب)

المبدأ ، وعلى المفكرين أن يرسلوا ، هم قبل غيرهم ، ذلك النظر البعيد إلى حياة الفكر فى خلال ما يستقبل من أعوام ، وأن يعدوا الأمر ، ليحتل غيرهم ما احتلوا من مقاعد ، وأن يمهدوا الطريق أمام المواهب الجديدة ، لتظهر وتزهر وتؤتى ثمراتها !.. فإن السؤال الذى يجول دائمًا فى الخواطر هو : ما الذى سيحدث فى العشرة أو العشرين عامًا المقبلة ؟.. هل الأمل معقود على طائفة من الأدباء يمكن أن تبرز بنوبتها فى الصف الأول ؛ لتمضى فى رفع مشعل الأدب والفكر فى هذا البلد ؟! أو أنه كما يقال : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟!... » .

رأيى أن إمكان الإبداع ممتد فى كل أوان !.. فالإبداع شىء حى متحرك فى الزمان والمكان ، لا يتعلق بالماضى وحده ، ولكنه كالشجرة يمتد ويتطور فى مختلف الفصول ، يبدل ويغير فى أوراقه وفى مظاهر إيناعه وإثماره ، ماضيه متصل بحاضره ، وحاضره مرتبط بحبل مستقبله !.. إن المجهودات تبنى فوق المجهودات .. والمواهب تنبع من المواهب ، والإبداع يؤدى إلى إبداع .. والثمرة تخرج منها الثمرة ، وكل هذا فى فلك يدور ، ولا ينفك

عن الدوران إلى آخر الأزمان !...

ونحن ــ إذا جلنا اليوم فى حديقة الأدب العربى الحديث ــ وجدنا أشجارًا مملوءة بعصير الحياة ، يانعة بأزهار الفن ، لا ينقصها إلا أن ننظر إليها بعين الرضا ، وأن نتخيل ما ستكون عليه غدًا من سموق وارتفاع ؛ فلا شيء يفسد الحديقة ويقفرها ويفقرها مثل أن نرى دائمًا أشجارها شجيرات ، لن تكون يومًا ضخمة الجذوع وارفة الظلال !... يجب أن نروض عيوننا على أن ترى الأشياء والأشخاص فى غدها ــ لا فى حاضرها وحده ، وأن نعرف كيف نقرأ المستقبل من خلال سطور الحاضر !.. إذا استطعنا ذلك ، فما من شك أننا واجدون فى مختلف فروع الأدب أقلامًا ، سيكون لها من الصدارة والقيادة فى الأعوام العشرة أو العشرين المقبلة ، مثلما كان لأصحاب الصدارة والبروز فى العشرة أو العشرين عامًا الماضية !...

فحديقة الشباب تزخر بأزهار طيبة الأريج ، لا سبيل هنا إلى تعداد صنوفها وألوانها !... وكل ما أردناه هنا هو أن ندعم الأمل فى غدنا الأدبى وأن نتساءل عن واجبنا إزاء هذه النخبة من أعلام

الغد ــ أولئك الذين يمسكون بطرف الخيط من وجودنا ليصبحوا غدًا امتدادنا ــ وأن نحاسب أنفسنا ، نحن الذين تقدمناهم فى حلقة الزمن ، عما صنعناه من أجلهم ، وعما يجب أن نصنع بالوارثين لنتائج جهودنا !.. قبل كل شيء يجب أن نعلم : أهم حقا فى حاجة إلينا ؟.. وأى نوع من المعونة هم مفتقرون إليه ؟... أهو مجرد اهتمام بأعمالهم ؟... ما من شك فى أن الاهتمام خير نافخ فى همة الفنان ، فإن الفنان لا يصبر طويلا على الإنتاج لنفسه !.. إنه يعمل كى يسمع لعمله صدى ... إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس !... أخيرًا كانت تحمل تلك النظرات أم شرًا . إن الفنان لا يهدمه الذم ولا القدح بل يدعمان وجوده . إنما الذى يهدمه حقًا « الإهمال » !... كفنه منسوج من العنكبوت ، ومدفنه تحت غبار النسيان ، ومن خيرة الفنانين من توهم أنه مهمل فدفن فنه حيا ، وانطلق يجد فى عمل آخر من أعمال الدنيا ، لا صلة له بأدب ، ولا بفن ، فخسره الفن والأدب !...

لابد إذن من التنويه بأعمال الفنانين والأدباء ، وإشعارهم ،

من حين إلى حين ، أن رسالاتهم إلى قلوبنا وعقولنا قد وصلت ، وأننا لجهودهم شاكرون ، ولمزاياهم عارفون !... ولكن ما هى الطريقة ؟... ما من شك فى أن علينا نحن أن نصنع شيئا من أجل الذين جاءوا بعدنا ؟... لطالما اتهمنا بالأثرة والانصراف عن مساعدة الآخرين ، وربما كان فى هذا الاتهام بعض الصواب ؛ فقد شغلنا عن ذلك زمنًا .. لا عن أثرة وحب ذات ، بل لتوهم طبيعى أننا نستطيع أن نحمل فى الأدب كل الأعباء !..

ولعل هذا من دوافع العمل المشروعة ؛ أن نتصور أنه لن يتم شيء إلا بأيدينا نحن !... فلقد جاهدنا كثيرًا ، وأنفقنا أغلب العمر فى التكوين والإعداد واستكمال الأداة الفنية ؛ كما لو كنا نحن وحدنا المنوط بهم فتح الحصون وبناء القصور !...

ولكن الحياة علمتنا أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر من شق طرق ووضع أسس ، وعلى غيرنا أن يبنى !... شعورنا اليوم شعور من يولد له الولد على كبر !.. إنه يفيق فجأة على نظرة أخرى إلى الأشياء : إنه لن يرى نفسه مركز دنياه ، المسئول وحده عن الرسالة ... ولكنه يرى دنياه حلقات يكمل بعضها البعض ،

ويرى أن صغيره لم يولد عبثًا ، بل خلق ليكمل شيئًا لن يستطيع هو إتمامه ، وأن عليه منذ اليوم واجبًا آخر غير مجرد الإنتاج ؛ عليه أن يعين خلفه على الوقوف على قدميه ، ليحمل « بدوره » رسالته على منكبيه !...

غير أن المشكلة التى تحيرنا دائمًا هى : وسيلة المعونة !.. أهى فى تجنيب الجيل الجديد أخطاءنا ؟... أم هى فى إشعاره بأخطائه ؟.. أهى فى إعداده قبل الظهور ؟... أم فى إظهاره قبل الإعداد ؟!... ثم أولئك الذين قطعوا فى فنهم شوطًا ، وظهروا بعض الظهور ، وبدت مواهبهم متألقة كقطع النور ، أعلينا إزاءهم واجب ؟... ما هو ؟... وما السبيل إلى الوفاء به ؟... إنا جميعًا لعلى استعداد أن نؤدى واجبنا ، ولن نحجم عنه أبدًا إذا عرفنا الوسائل وملكنا الأسباب !...

* * *

تبعات الأجيال

كل جيل مسئول عن أفكاره التي قد تتسرب ــ بعلمه أو بغير علمه ــ إلى نفوس الأجيال الجديدة .. لذلك يحسن تفسير تلك الأفكار من حين إلى حين ، حتى لا يساء فهمها !...

من ذلك أني رأيت بعض الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب في طلب العلم ، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية ... فإذا هم أحيانًا ، يفكرون ويشعرون شعور « محسن » وتفكيره في كتاب « عصفور من الشرق » يوم ذهب بعد الحرب العالمية الأولى إلى الغرب ... فهم يهيمون مثله باحثين هناك عن « الروح » ... وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هي روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها !.. ثم يسيرون خلف « محسن » الآخر في كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافي والروحي ، في « رواسب » الآلاف من السنين الكامنة في

ضمير مصر . ريفها وأهلها الصادقين !.. ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصرى ، ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته !.. إلخ .

من الخير بالطبع ، أن ندع هذا الشباب يعيش فى مثل هذه المشاعر والأفكار !.. لكن من الخير أيضًا أن نقول له : قدس ماضيك دون أن تذهب فى ذلك التقديس إلى الحد الذى يجعلك توصد روحك دون تلقى كل جديد ينفعك ، ولو كان ذرة من أشعة !... اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث لتثرى نفسك ، ويتسع أفقك !..

هذا قول من واجبى أن أكرره دائمًا !...

فالخطر على غدنا كل الخطر من ذلك الفهم المحدود لكلمة « طابعنا » ، ومن تلك الفكرة التى تجعل الشباب يتخذ من روحانيته الشرقية ، ورواسب حضارته المصرية سجونًا وحصونًا تعزله عن تفكير العالم ، وتمنعه من المساهمة فى النشاط الفكرى الإنسانى العام بقوة وشجاعة ، دون أن يرى بهلع فى الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانًا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من

بين جنبيه !... إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطغى عليه حضارة من الحضارات .. فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى ؟!...

كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح : « قصة مصرية » !.. وعنى بأن يجرى حوادثها فى الأحياء الوطنية ، ويصبغها صبغًا عنيفًا بالألوان المحلية !... كل ذاك ليقنع نفسه بأنه يصنع فنًا قوميًا ذا روح مصرية أصيلة .. كل هذا نوع من مركب النقص أو من الخوف لا مبرر له .. إن الروح المصرى الأصيل يستطيع أن يطبع أى موضوع يمسه ، ولو كان فى محيط أجنبى ، كما استطاع الروح الإسلامى أن يطبع فن العمارة ، الذى استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين !... وكما استطاع « شكسبير » أن يطبع بشخصيته الأساطير التى نقلها عن الإيطاليين ، والدانمركيين ، والشرقيين !...

بل إن جانبًا كبيرًا من الآداب الكبرى يتعمد أن يتخذ موضوعه بلادًا و أشخاصًا أجنبيه عنه ؟... وهو ممتلئ الثقة بأن الموضوع الأجنبى ، لا يؤثر مقدار شعرة فى لون الطابع الشخصى لهذا

الأدب !... هذا هو الأدب القوى الواثق بنفسه ، يطبع بخاتمه ما شاء من موضوعات ، ويدع علمه يرفرف على ما شاء من بلاد !...

فكرة أخرى تحتاج إلى تفسير ، نشرت منذ أعوام فى صفحة ١٠٥ من كتاب « تحت المصباح الأخضر » هذه السطور :

« .. إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأدب !... من أجل هذا نرى أن جانبًا كبيرًا من أدبنا الحديث ، مازال أدبًا « حبيسا » تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة !... أدب صناعة ، وأدب « علب محفوظة » من التعبيرات المستعارة ، والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين !...

أما أدب الهواء الطلق ، أدب التعبير عما فى أعماق النفس فى حرية وأمانة وإخلاص ، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية . هذا الأدب الخارج من القلب ؛ ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة ، هذا الأدب العالمى الذى يؤثر فى نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمى ؛ لأنه نبع صافيًا خالصًا حارًا من قلب آدمى ؛ هذا الأدب حظنا منه قليل، لأن حظنا من الصراحة والصدق

قليل !... » إلخ

* * *

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيرًا .. كما رددت الألسن عبارات « الفن والحياة » و « الفن والشعور » و « الفن والصدق » .. إلخ .. ما يدل على أن معنى الأدب أخذ يتحول إلى الاتجاه المثمر ، فى مجتمعنا المعاصر .. لكن هل معنى ذلك أن نكف عن النظر فى كتب الأقدمين ؟

أرى من واجبى أيضًا أن أوضح ... لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبى العلاء المعرى ، وأخرجت كتاب « سقط الزند » فعكفت على مطالعته من جديد !.. وخرجت من ذلك أقول : فن هذا العبقرى « رهين المحبسين » .. أهو فن هواء طلق وقلب وشعور وحياة ؟! أم هو فن رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة يمتعنا حقًا !... ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا ، بقدر ما يثير تفكيرنا ، ولا يهز قلوبنا بقدر ما يهز رءوسنا ، ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة ، ولكننا نبلغها بذهننا بعد كد وجد وغوص ؟! » .

إذن يجب أن أوضح للشباب كلامى المطلق الذى نشرته منذ

أعوام ، وأن أقول لهم إن الشعور الحار وحده ، بما يثيره من انفعال ؛ ليس هو كل الفن ، ولا هو خير الفن فى بعض الأحيان ؛ لأن المتعة التى تأتى من غير غوص ، هى فى أكثر الأحوال رخيصة !... وآلام « فرتر » العاطفية أقل رتبة فى نظر « جوتة » نفسه ، وتاريخ الأدب من « فاوست » الذهنية !. غموض قولى السابق ، أتى من أنى لم أحدد معنى « القلب » !.. القلب فى الفن هو الصدق — لا الصدق بمعناه الضيق ؛ المقصور على الشعور العاطفى أو الوجدانى — بل أيضًا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار !..

على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى « الحياة » فى الفن !... ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة .. وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة ، إلا أن نتمثل فن الزخرف الإسلامى الذى لا يصور زهورًا ، ولا طيورًا ، ولا حيوانًا !... ويقوم على تخطيط هندسى !.. فن عريق بديع لا شك فيه ، ولكن نسبته إلى الحياة التى نعرفها تحتاج إلى مشقة فى التخريج !... هذا التجريد الذهنى فى الزخرف الإسلامى ، يماثله التجريد الذهنى فى

الفن المصرى القـديم ، بخطوطـه الرئيسيـة العاريـة من اللحـم والدم !... لقد كان همه أن يحيى الفكرة فى الحجر — لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق ...

مهما يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك ، فإن اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع فى الأدب والفن ، يحملنا على أن نوسع معنى « الحياة » حتى تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون ...

لابد أن تكون « الحياة » فى الفن ليست بعض ما يقع فى العالم الخارجى ويضطرب فيه الإنسان بحسه ومشاعره فقط — بل أيضًا كل ما يقع فى العالم الداخلى ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأملاته !... إن الحياة فى الأدب والفن هى الحياة كلها — الحياة الكاملة ، بمعناها الواسع العميق — تلك « الحياة » التى تسكن فى كل جزء من أجزاء الإنسان الحى فى قلبه ، وفى غريزته ، وفى حسه وفى رأسه !...

* * *

ذلك بعض من تلك الأفكار التى تركناها تسعى من جحور

الكتب إلى وعى الشباب دون انتباه !... حبذا لو عدنا من حين إلى حين ؛ بأيدينا أو بأيدى غيرنا من النقاد والباحثين ، نراجع ما نشرنا ، ونسترجع ما أصدرنا ، لنعيده مفسرًا مجددًا ؛ كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدى الناس أوراق العملة القديمة لتردها فى حالة جديدة !...

انفصال الأجيال

العلاقة بين الأجيال ظاهرة طبيعية ، تسترعى دائمًا النظر ، وتستوجب الدراسة والبحث ، ولكنها فى « مصر » اتخذت من الصور ما يثير العجب ويحير الفكر ؛ فلقد شاهدت بنفسى صورتين متناقضتين كل التناقض — أما الصورة الأولى فهى التى عاش فى إطارها جيلنا والأجيال التى سبقته ولا حاجة بى أن أصفها بالقول !... يكفى أن أورد واقعة واحدة ، فيها كل الدلالة والمغزى :

سمعت المرحوم والدى ؛ يتحدث عن أبيه باحترام عميق فى كل مقام ، وكان أبوه ممن تعلموا فى الأزهر ، ثم أقاموا بعدئذ فى الريف ، يزرعون ما يملكون من أطيان !... وكان والدى قد أوغل فى الحلقة الرابعة ورقى إلى منصب القضاء .. وطفق أبوه فى ذلك الحين يتصرف فى أطيانه بالرهن والبيع ، ثم يعود إلى الشراء

والاقتناء ، ثم يقترض ويتعهد ويتعاقد !.. فقال بعض أصدقائه :

ـــ هذه تصرفات قانونية ، وابنك قاض من خيرة القضاة ، ألم تستشره ؟...

فما كان من الأب إلا أن صاح :

ـــ ابنى ؟!... أستشير العيال ؟!...

ولم يكن والدى يجد غضاضة فى ذلك القول .. وكان يتلقاه بابتسامة التسامح ، وشعور التوقير ، ولو أنه فى دخيلة نفسه ما أراه اعتقد أن أباه كان على صواب !... إنى ما سمعت قط منه نقدًا لأبيه ، فقد كان ينحنى على يده يقبلها أينما التقى به!.. وكان يلتمس له المعاذير ، ويبرر كثرة زواجه بأنه كلما تزوج واحدة وجدها أجهل من سابقتها .. غير أنى ، على قدر ما تسعفنى ذاكرتى ، قد خيل إلى وقتئذ أن والدى كانت له نظرة أخرى فى الصلة التى يجب أن تقوم بين الآباء والأبناء ، ولكن حدث بعدئذ ما جعلنى أضرب كفًا بكف من الدهشة والعجب ؛ فقد صرت ـــ أنا بدورى ـــ فى الحلقة الرابعة وانخرطت فى سلك القضاء ، وشاهدت المرحوم والدى يتصرف بالرهن تلو الرهن فى

بيت كنا نعتز به ، ويقابل أمامى كل من هب ودب من السماسرة والمرابين ، يسر إليهم الحديث ويهمس لهم فى الآذان ، ولا يخطر بباله قط أن يكشف لى عن جلية الأمر وبواعث التصرف ، أو يسألنى ، رأيى المتواضع ، فيما هو مقبل عليه ، وأنا الذى أحقق كل يوم فى تصرفات الناس ، وأفحص وأزن ما لهم وما عليهم من حجج وبينات ، وأتحمل فى أرواحهم وحرياتهم وأموالهم ، أخطر التبعات !..

ومع ذلك قامت فى نفسى ثورة ، وما ارتفع لى فى حضرته صوت ، وما كنت ألقاه وأنا فى ذروة العمر إلا بتقبيل يده والإصغاء إلى نصائحه ...

* * *

تلك صورة طواها الزمن — فيما أعتقد — ونشر صورة أخرى لجيل جديد ، يرى الأمور على وضع آخر ؛ فهو يصر على أن يكون له رأى فى محيط البيت والمدرسة والمجتمع !... وقد جاء هذا الجيل فى ظروف عالمية تبرر الانقلابات ، وفى ظروف قومية تنادى بالحرية ، واجدًا من الجيل السابق الذى يحتضنه مؤازرًا

لنزعته ومشجعًا ، لأن هذا الجيل السابق لم يكن إلا جيل الثورة المصرية !... على أن أبناءنا وقد ظفروا بحق إبداء الرأى فى كل شىء ، لم يقفوا عند هذا الحد ، ما من شاب يقبل منك الآن نصحًا ، أو يلقاك اليوم فتأنس منه توقيرًا لسنك ، أو احترامًا لجيلك !.. إنه يخاطبك مخاطبة القرين للقرين ، مهما يكن الفارق بينكما فى المكانة والسن ، وما من شاب يقنع اليوم بأن يكون له فى شئون أسرته رأى ، وفى مذاهب السياسة رأى ، وفى برامج دراسته رأى ، وفى أساتذته رأى !... إن مجرد إبداء الرأى أصبح لا يكفيه !...

جموح الشباب ، وبلبلة الأفكار ، وزلزلة القيم ، وهزات الأحداث العالمية ، وسرعة التطورات الاجتماعية ؛ — كل هذا جعل الجيل الحديث يشب على عدم احترام القديم الثابت المستقر من النظم والأفكار والقيم والأشخاص !... وبانهيار هذا الجدار انطلق الشباب يهيم فى كل واد ؛ بلا ضابط ولا رابط !.. وتولدت عنده بذلك عقيدة راسخة هى : أنه ليس فى البلاد رأى غير رأيه هو الذى تستقيم به الأمور .. وأن من حقه أن يفرض هذا الرأى

فرضًا على آبائه وأساتذته وقادته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا !...

* * *

في الصورتين إذن انفصال بين الأجيال !.. في الماضي كان آباؤنا يفرضون علينا إرادتهم ، وفي الحاضر ، نرى أبناءنا يريدون فرض إرادتهم علينا !... أترانا نحن الجيل الذي بلا إرادة .. أعطيناها لآبائنا تبجيلا ، ولأبنائنا تشجيعًا ؟!...

تصادم الأجيال

كلما حدث فى مجتمع انفصال بين الأجيال ، رأى كل جيل أن هذا المجتمع غريب عليه ، وأنه برىء منه ، لا يدرى كيف جاء ، ولا كيف تكوّن ، ولا يعرف من المسئول عنه ...

جاءتنى رسالتان تصوران هذه النظرة إلى المجتمع ؟...

الأولى ؛ تمثل رأى الجيل السابق ، هذا نصها :

إن جيلنا كان له من الملاهى « كازينو دى بارى » ، وفتيات « أوركسترا كافيه إجبسيان » للطبقة المتفرنجة . وقهوتان للرقص والغناء فى « وجه البركة » .. أما اليوم فقد أصبح من مستلزمات الطبقة المتوسطة وجود « البار » الأمريكانى فى المساكن الخاصة .. وأصبح من حق جارى أن يثير أعصابى بميكرفون ... وأصبح المخنثون يمشون متشابكين خمسة خمسة على الأفاريز !... وأصبحت الأوضاع مقلوبة !... القانون يهاب الإجرام ، والأب

يخشى ثورة الابن، الذى رضع من ثدى الحرية الفاجرة!... أما فى غير مصر فإن القانون الرقيب على المجتمع، قد أجبر يومًا ممثلة مصرية كبيرة، كانت تضع ساقًا على ساق فى ترام «جنوا» أن تنزل ساقها، فثارت واعتبرت هذا الإجبار اعتداء على الحرية؛ ولكنها اضطرت آخر الأمر أن تلتزم حدود المجتمع الذى تعيش فيه، فأنزلت ساقها على مضض...»

أما الجيل الجديد فتمثله رسالة هذا نصها:

إننى — كأحد أبناء الجيل الجديد — أقول: إنه جيل يريد أن يصل إلى إدراك معنى الحياة، وإلى بلوغ أقصى ما يمكن من المعرفة والتقدم والرقى!... على الرغم مما يرى فى تصرفاته من تهور واندفاع، لا يقفهما عقل، ولا يحد منهما إدراك، حتى صار الناس يوجسون خيفة من أعماله، ويرون فيه خطرًا عليه وعلى المجتمع!.... وما من شك أن للجيل الجديد أخطاء، ولكن على من تقع التبعة؟... أليس المسئول هو الجيل الذى سبقنا؟... إنه لم يعرف كيف يقود الجيل إلى الشاطئ الأمين.. لقد أخافه وأرهبه هذا التطور المفاجئ فى التفكير الإنسانى!... فترك له الحبل على الغارب؟... أهو قد حار بين أن يقدم معه، أو يحجم

عن مجاراته !... ومن هنا ظهر تردده وضعفه وتخاذله ؟... أو أنه تجاهل ؛ أو تغافل عما تطورت إليه الحياة العامة ؛ فأراد أن يعود به القهقرى ـــ وكانت النتيجة فى كل الأحوال أن عصى ؛ لأن الحياة التى نعيشها فى هذا العالم الحاضر لا تسمح لحى أن يمشى إلى وراء ، وإلا داسته العجلات السائرة فى موكب الحضارة !...

إنما الخلاف هو فى اختلاف طبيعة الجيلين : أحدهما يريد التمهل والآخر يريد القفز !... وليس هذا بجديد !.. هكذا كان الآباء والأبناء فى كل زمان ومكان ، ولكن الجديد فى عصرنا الحاضر ـــ عصر الثورات والانقلابات ـــ هو أن الخلاف فى الطبيعة والنظرة قد انقلب هو الآخر إلى ثورة ؛ ثورة اتخذت لها شتى المظاهر : فى البيت ، والمدرسة والعمل والمجتمع !... ولم يعد من السهل أن نفرق فى دخانها بين حدود النظام والحرية ؛ والحق والواجب !... وبهذا اختلطت الأقدار ، وضاعت معالم القيم ، وفسدت العلاقة بين الأجيال ، وانفصلت حلقاتها !... وانعدم التعاون بينها ، وانتهى الأمر إلى ما نرى ، من وقوف كل جيل موقف المرتاب من الجيل الآخر !...

كل الأزمة إذن هي فى هذا الانفصال بين الأجيال !...

خرج البنون على آبائهم ، وخرج التابعون على قادتهم !...

فى النظرتين إذن إنكار لحالة المجتمع ، واعتراف بأنه قائم على فساد ؟... وليس المهم إلقاء التبعات ، وقذف الاتهامات ؛ إنما المهم هو البحث فى العلة وعلاج الداء!... وما من شك فى أن الأفكار تتطور اليوم بسرعة ظاهرة ، والحياة تتجدد ، والمجتمع يتابع كل ذلك على الرغم منه ؛ كورقة فوق تيار جار !... وما أظن كثيرين من الجيل السابق يخطر لهم أن يقفوا عجلة الزمان ، أو يرجعوا عقارب الساعات إلى الوراء ؛ فهم متهمون أحيانًا بأنهم قد جرفوا فى التيار جرفًا ، دون أن ينظموا له الجسور والسدود . فالتجديد الشامل فى نواحى المجتمع ، لم يتم شيء منه فى واقع الأمر إلا : بإيحاء ، أو رضى أو تساهل من الجيل السابق !... ولكن الجيل الجديد يعيش فى عصر التغيرات الخاطفة ، والتطورات السريعة ، والاختراعات المفاجئة ، فأصبح لذلك أقل من الجيل الذى سبقه صبرًا وجلدًا ، وأقوى منه رغبة فى كل تغيير وأعنف منه ثورة على كل ثابت مستقر !...

ليس الخلاف بين الجيلين فى الحقيقة على مبدأ التطور والتجديد فالكل مسلم بضرورة الانحناء لدواعى التجديد والتطور . ولكن الخلاف الحقيقى فى ذلك التصادم — فى ضياع الاحترام والثقة — فى السير ، لا بروح التعاون ، بل بروح التحدى !...

* * *

تجاهل الأجيال

إن انقطاع الصلة بين الأجيال يحدث أيضًا من ذلك الجهل بطبيعة كل جيل ، أو التجاهل لما تتطلبه تلك الطبيعة !... وها هى ذى رسالة ، تصور هذا الجهل ، أو التجاهل بين جيلين :

« ... يمنعنى والدى من قراءة المجلات والجرائد ، على اختلاف أنواعها ، ولا يقبل مناقشة فى فائدة القراءة والاطلاع ، وكلما أبصر فى يدى مجلة مزقها !.. وهو ينهانى عن مصادقة أى شاب ، حتى إن كان مثقفًا ، وهو يرتاب فى حركاتى وسكناتى ، ويخاف علىّ !... وهو يريد أن أعيش كعابد فى صومعة ؛ ولا يرانى الناس ولا أراهم !... إنى مشغوف بالقراءة ، فماذا أصنع لأرضى هوايتى وأرضى فى عين الوقت والدى الذى أكن له كل الاحترام ؟... » .

هذا والد يريد أن يربى ولده؛ كما يربى ذلك النوع من الزهر فى

بيوت الزجاج !... وأنا لست من علماء التربية للبشر ، أو للزهر حتى أبت فى هذا الأمر ... ولكنى أعتقد أن كل كائن إنسانى أو نباتى لا يتعرض للشمس والهواء والريح والغبار ــ ينشأ رقيق التكوين ، ضعيف البنيان ، يحتاج إلى دثار من العناية ليحيا ، وإلى جدران من الحيطة ليعيش ، ويكفى أن تحدث المصادفة فى تلك الدروع ثغرة ذات يوم ، لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى !... كلا أيها الوالد الخائف !... ليس هذا هو السبيل ، حطم بيت الزجاج وأخرج زهرتك وعرضها برفق للشمس والهواء !... دع ولدك يقرأ ودعه يصادق ودعه يعيش ربيعه !...

لا تخش لون القراءة التى يشغف به ابنك فى هذه السن المبكرة . إن الطبيعة أعقل منك أيها الوالد ، إنها هى التى تغرس الميول فى النفوس ، وتلونها على حسب الأسنان والأعمار ، كما تلون أوراق الأشجار !...

ففى الشباب يورق الخيال والشعور والعاطفة !... وفى الكهولة يورق العقل والحكمة والتجارب !... ومن الخطأ أن يتحدى والد الطبيعة ، وأن يتغلب بغرسه على غرسها ، وأن

يتطلب فى ربيع العمر شجرًا قائم الجذع ، صلب العود ، تحت عصف الريح !... ولكنها فيما يظهر قصة كل والد : إنه يحكم على ولده بمزاجه ، ويقيس درجة حرارته « بترمومتره » ، وكأنه لا يستطيع له فهما — كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع ، فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر ، فوق الغصون اللينة المخضرة ، ويهزأ من طيره الصادح ومن ليله المقمر ، ومن نسيمه المعطر ، ومن كل تلك الرقة التى تملأ بها الدنيا — ذلك الفصل الربيعى الرقيق !... إنها فى نظر الشتاء الصارم ضعف ، لأنه فصل العنف تتصارع فيه العناصر ، وتتعارك القوى !... إنه الحياة فى كفاحها الأكبر .

أنا أيضًا وقفت هذا الموقف من والدى — رحمه الله — وأنا فى الثانية عشرة من عمرى !... كنت أرهب أيام الجمع ، لأنها الأيام التى يفرغ فيها لى ، يناقشنى فيما أقرأ وكان يتخير لى هو نوع الكتب ، التى يجب فى عرفه أن أقرأها !... وكان أخفها وطأة كتاب يحوى « المعلقات السبع » ، ضربت بسببه أوجع الضرب فقد كان والدى لا يكتفى منى بالحفظ عن ظهر قلب ، بل يريد

منى أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلى فى تلك السن !...
وكنت إذا عجزت عجب لجهلى وحمقى ، ثم استشاط غيظًا
منى — مدفوعا ولا ريب بالخشية على مستقبلى الضائع — وإذا
يده تتناول وجهى بالصفع الثقيل ، فلا تتركنى حتى يسيل الدم
من أنفى ، وهو يصيح بى :

— يا جاهل! يا غبى !.. أيوجد أسهل من هذا البيت لزهير بن
أبى سلمى !.. هذا السهل الممتنع يا أحمق !...

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب ... ويوطأ بمنسم »

ثم يهز رأسه إعجابًا بالحكمة التى ينطوى عليها هذا الشعر !...
حقًا هذا شعر خليق أن يقدره والدى الذى حنكه الدهر ، وعرف
من تجاريبه حقيقة كل كلمة فى هذا البيت ، ولكن الذى يدهشنى
الآن هو : كيف غاب عن والدى وقتئذ أن مثل هذا البيت لا يمكن
أن يتصور حقيقته ذهن غلام فى الثانية عشرة ؟ ...

أترى كان المقصود أن أشرح البيت شرحًا محفوظًا ، كما ألقيه
إلقاء محفوظًا ؟!... وما قيمة ذلك ؟... إن هذا لا يرفعنى عن

الببغاء إلا مرتبة بسيطة ؟... ولكن المقصود — فيما أعتقد — أن يشرح الإنسان المعانى شرحًا محسوسًا ؛ بكل شعوره ، وكل إدراكه ، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر !... فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إلى غلام ، أو شاب أن يفسر إلا ما تستطيع تجاريب سنه أن تلم به من مدارك وإحساسات !...

من أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب على نفسه وعلى غيره ؛ بتلقينه تفسيرات « موضوعة » لأشياء لا تدركها سنه !..

لهذا أيضًا يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبى أو الشاب من قراءة ما يناسب سنه من ألوان القراءات !...

ولا تقلق أيها الوالد ، ولا تظن ابنك — وهو اليوم غارق فى هذه المطالعات التافهة اليسيرة — سيظل سائرًا منساقًا فى تيارها إلى آخر العمر !...

إن تيار الحياة هو الذى يغير لون المطالعات ، وأنت نفسك أيها الوالد الذى تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد ، أو تتغنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو

بعلم الرياضة ـــ كنت فى صباك مشغوفًا بقصص « روكامبول » أو « أبى زيد الهلالى » !... ولكنك لا تذكر ذلك العهد ؛ كأغلب الآباء !.. ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط ، لأن حياتك اليوم تدفعك فى مجرى بعيد عن حياة الخيال ، وبدا لك عقلك ، وكأنه لم يعد يطيق هضم القصص !....

أيها الوالد !... اترك ولدك لسنه !... وافهم طبيعة جيله !...

* * *

حرمان الأبناء

كم سعدنا فى طفولتنا الجميلة بشهر « رمضان » ، وكم شقينا أيضًا !... من ذا الذى لا يذكر خفقة قلبه الصغير ، فى صباه ، وهو أمام حانوت « السمكرى » ، يقلب أنظاره الشائعة ، وأبصاره الزائغة ، فى مختلف « الفوانيس » بزجاجها ذى الألوان ؟... ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر الأخضر الأحمر المعلق فى القمة !... ولكن ثمنه ولا شك باهظ !... ترى هل يرضى الأهل ببذل هذه التضحية من أجله ؟... إنه على كل حال لن يكلفهم شططًا ولكنه سيفعم قلبه بسرور لن يقدر الكبار مداه أبدًا !... ما أقسى الكبار أحيانًا !.. إنهم قد يضنون ببضعة دراهم لن تغنيهم ، هى الفرق بين لعبة ولعبة !... ولكنها — فى الواقع — هى الفرق بين سعادة وسعادة !... ما أشد نسيان الكبار !.. لقد كانوا كلهم صغارًا فى يوم من الأيام !... لماذا لا يذكرون فى ذلك

العالم السحرى العجيب ، الذى تتفتح للأطفال أبوابه الذهبية فجأة كلما أرادوا الحصول على شيء من تلك الأشياء التى يحلمون بها !.. عالم من هناء سماوى ، لن يتاح لأحد غيرهم أن يعيش فيه بهذا الثمن الزهيد بعد أن يجاوز أعمارهم !... لو تذكر الكبار ذلك العالم الذى أغلقت دونهم أبوابه بخروجهم من طور الطفولة لما ضنوا على أولادهم بشيء !... فهم الآن وفى أيديهم القدرة ، وفى جيوبهم المال ، لن يستطيعوا فتح كوة فى ذلك العالم مهما يشتروها بثروة الدهر وذخر العمر ... ما أعجب تلك المعجزة التى يسمونها الطفولة!..... فيها تستطيع أن تدخل الفردوس الذى لن تدخله بعد ذلك أبدًا بقروش معدودات !... سل كل صاحب ملايين فى أمة من الأمم : هل فى مقدورك أن تشترى اليوم بملايينك لحظة سعادة ؛ كتلك التى كنت تشتريها فى صباك بدرهم أو درهمين ؟

أرأيتم يا ملوك المال ؟... تلك ملايينكم قد تضاءلت أمام ثروة طفل !... وذلك ذهبكم قد تحول إلى تراب أمام كنوز الطفولة !...

هنالك مع ذلك مشكلة تحتاج إلى تفكير وتدبر :

إذا كانت لك القدرة على إشباع رغبات طفلك وتحقيق أحلامه فهل تفعل أو تتمهل ؟... هل من مصلحة الطفل أن تروى كل رغبته ، أو أن تبقى فيه بعض ظمأ لم ينطفئ ؟...

أقول ذلك لأنى لم أظفر فى طفولتى بكل ما كنت أتوق إليه من لعب ، وأصبو إليه من أشياء ... فكنت أخلقها لنفسى بخيال مشبوب ، وكان من أقرانى وجيرانى من يملك لعبًا نفيسة عجيبة تملأ حجرته ، وتملؤنى دهشة ، أقف بينها مشدوها ، وأحملق فيها معجبًا ، وألمسها مكبرًا !... وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطمًا ومحقرًا !... كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه ؛ وأرى فيها أشياء باهرة ، لا تراها عيناه ؛ وكأن كل لولب فيها ، أو لغز أو مفتاح ؛ — يحرك كل مخيلتى ، ويهز كل واعيتى !.. كل ذلك ؛ لأنى لا أملكها ، ولا أستطيع أن أحصل عليها !...

ترى ، يا علماء التربية ، ما الواجب أن يتبع فى تنشئة الطفل ؟... تلبية ندائه أو صم الأذن أحيانًا عن مطالبه ؟... منحه

لذة الامتلاك ، أو تعريفه بمرارة الحرمان ؟..

إذا جاء « رمضان » ، وتطلع إلى الفانوس المزركش المبرقش فى قمة الدكان ، فهل تترك خياله معلقًا به ، وأحلامه تهتز معه ، وتبتاع له الفانوس الآخر ، أو تأتى له بالأول ، — تضيء زجاجه وشمعته ، وتطفئ خيال الطفل ولوعته ؟!...

صنع الأجيال

يؤكد عالم « بيولوجى » أمريكى أنـه ــ فى خلال خمسة أعوام ــ سيصبح فى مقدور كل زوجين أن يختارا نوع المولود الذى يريدانه .. فمن شاء مولودًا ذكرًا جاء له ذكر ، ومن شاء الأنثى جاءت له الأنثى !..

إن العلم يريد أن يضع فى يد الإنسان مفتاحًا رهيبًا ، من مفاتيح الطبيعة الحكيمة !... العلم !.. هذا النهم الذى يسكن رأس الإنسان ، ويدفعه إلى نيل ما لا ينبغى له أن ينال !.. لكأنى بالطبيعة ــ هذه الأم الرحيمة ، وقد لمحت يد طفلها الإنسان ، تمتد خلسة إلى وسائدها : لتجذب من تحتها المفتاح ، تهب قائلة لنفسها مرتابة قلقة :

ــ أيها الأحمق !... تريد أن تصرف كل أمورك بيدك ؟... أخشى ألا تكون على ذلك قديرًا ، ولا به جديرًا !... إنى أدبر لك

شأنك ، متحللة من كل نزواتك ، مرتفعة عن كل صغائرك ... أرى مصيرك لا فى نطاقه الفردى المحدود ، بل فى علاقته بمصاير غيرك من الأحياء !... إنك ستندم على هذا النزق يومًا !...

وكأنى بالإنسان يقول للطبيعة بلسان العلم :

— لم أعد طفلًا ، ما دمت قد عثرت على مفتاحك ؛ فإنى أهل لأخذه واستخدامه !...

فتهمس الطبيعة :

— كل الأطفال يقولون ذلك !... ويمضون بالمفاتيح إلى الخزائن الممنوعة ، بحثًا عن الحلوى أو المتعة فيبعثرون ما فيها ، ويلقون الاضطراب فى نظامها !... افعل ما شئت ، وسنرى ما يكون منك !..

* * *

ولن يكون غير أمر واحد : ما أن يعلم الناس أن فى الإمكان اختيار نوع الولد ، دون أن يتكلفوا أكثر من جرعة دواء ، بقليل من المال ، حتى يندفعوا كلهم أفواجا إلى الصيدليات ، يطلبون الدواء الذى ينجب لهم المولود الذكر !... فما يمضى جيل حتى

نرى الدنيا قد زخرت بالذكور !...

وتظهر عند ذاك مشكلة عالمية : هى البحث عن الأنثى !..

وقد تقع المعارك والحروب بين الرجال من أجل المرأة ؛ كما وقعت حروب « طروادة » من أجل « هيلينا » ..

عندئذ تنقلب الكفة فجأة ، ويندفع الناس من جديد إلى مخازن الأدوية ، يطلبون الدواء الآخر الذى ينجب الإناث !... فلا يمضى جيل ، حتى نرى الدنيا قد زخرت بالنساء !...

وتظهر مشكلة البحث عن الرجل ؛ — فيعود الاندفاع إلى المخازن والصيدليات طلبا له .. وهكذا دواليك — حتى يحدث نوع من التوازن بعد أجيال !...

ذلك أن هذا الطفل الإنسانى الكبير غير قدير على أن يقر التوازن فى شئونه إلا بثمن باهظ من الجهد ، وبعد زمن طويل ينقضى فى الاضطراب بين النقائض ، والترنح بين الأضداد !...

* * *

هذا فرض قائم على حسن الظن بالإنسان ، وعلى أنه يستطيع بنفسه — آخر الأمر — أن يسيطر على نزعاته ونزواته ... وأنه فى

إمكانه أن يحل محل «الطبيعة» فى تنظيم ملكاته.. ولكن هنالك فرضًا آخر يقوم على عجزه وإخفاقه!... هنا لا نرى مناصًا من تدخل «الطبيعة»!.. هذه الأم اليقظة الصابرة، لا يمكن أن يبلغ بها التغاضى والتسامح حد الإهمال!... فهى ما تكاد تلمح العبث من طفلها، قد انتهى إلى الحد الذى يفسد النواميس، حتى تنهض مسرعة إليه، تمسك بزمام الأمر بيديها، لتقر النظام فى نصابه بطرائقها، وتعيد التوازن إلى حاله بأساليبها!...

فإذا كان عدد الذكور قد طغى طغيانًا لا سبيل إلى كسر شرته. أيقظت «الطبيعة» الفتن، وأقامت الحروب، فحصدت بنيرانها ما لابد أن يحصد من هذا المحصول الفائض!... وإذا كان تعداد الإناث هو الغالب، أشاعت الإباحية، والأوبئة، والثورات الاجتماعية، فأخمدت بموجتها ما لابد أن يخمد من هذا الفوران الزائد!...

وعند ذلك يتم لها النصر، وتقنع من الإنسان بهذا الدرس فلا تريد منه إلا أن يشعر بغروره، ويعترف بنزقه، ويسمع همسًا وهى تحنو عليه باسمة، غافرة، مشفقة:

— أشبعت لعبًا؟!... ألا يحسن بك الآن يا بنى أن تدعنى أتولى أمرك؟!...

أجيال الطبيعة

يقول المفكر الصينى « يو تانج » : إن من الناس من يرفض أن ينتج ذرية !... فهل تستطيع الأشجار أو الأزهار أن ترفض إنتاج البذور التى تكفل استمرار البقاء لنوعها ؟... إن مشكلة العصر الحاضر هى أن كثيرًا من الناس لا يتزوجون ، وأن كثيرًا ممن تزوجوا يرفضون إنتاج الذرية لأسباب شتى : كارتفاع مستوى المعيشة ، وازدياد تكاليف الحياة ، ومشقة الكدح فى سبيل الرزق !... لكن ما من سبب من الأسباب ، ينبغى — فى نظره — أن يحول دون قيام البشرية بواجبها الطبيعى الذى تقوم به الشجرة والزهرة !...

هذا قول حق !... لكن هناك فرقًا فى رأيى بين الشجرة أو الزهرة ، وبين الإنسان !... إن الشجرة لا تفكر فى معارضة القوانين الطبيعية ... إنها لا تنسى أبدًا أنها جزء من الطبيعة ذاتها

وأنها عندما تنتج البذور تترك للحياة مهمة فرز الصالح من الطالح ولا تتعجل النتائج ، وتدع للزمن حرية العمل ، ينضج من الأنواع ما ينضج ، ويميت منها ما يميت ، ويضحى بمئات الآلاف ، أو آلاف الملايين ، ليخرج فصيلة ممتازة رائعة كاملة بعد حين !...

أما الإنسان فأمره مختلف .. إنه حيوان يفكر أو نبات يعقل ... وعمل العقل والتفكير هو استخراج مبادئ واستنباط قوانين ... وهذه القوانين والمبادئ كثيرًا ما تعارض قوانين الطبيعة ... ذلك أن الإنسان العاقل يضع مبادئه فى نطاق زمنه المحدود ... ولكن الطبيعة تضع مبادئها فى نطاق زمنها غير المحدود ... من هنا ينبع سوء التفاهم بين الطبيعة والإنسان فى أغلب الأحيان ؛ فأكثر الذين لا يتزوجون قد اتخذوا هذا القرار ، بناء على مبدأ من مبادئ العقل الذى يزين لهم الحرية الفردية ، ويجعلها فى صورة مغرية من صور السعادة الإنسانية !... هذا الرجل الفرد المحلق كالعصفور — بغير عش فى كل الأجواء — لا يخشى الغد ، ويتحدى الأنواء !... ما أسعده فى وحدته وراحة باله وعدم مسئوليته ويظل هذا الرجل فى الحياة يصفق بجناحيه لا

يظل بهما أحذًا .. إلى أن يموت بردًا بغير عش، أو يمضى راضيًا بغير ندم!... وهكذا ينتصر العقل على الطبيعة!...

وإما أن يشعر العصفور أن التحليق فى الهواء لا يمنحه الحرية؛ بل يمنحه التيهان ، وأن سعادته ليست فى نشر الجناح على الهواء بل على بيت وقرين!... عندئذ تنتصر الطبيعة على العقل، ويتزوج الرجل، غير أن العقل لا يتركه وشأنه؛ بل يعود إليه ليضع له المبادىء، ويسن له القوانين، ويقول له : إيرادك صغير، فلا تنجب أو أنجب أطفالا!... أو إيرادك متوسط؛ فأنجب طفلين!... ويصغى الرجل إلى قوانين عقله؛ ولا يصغى إلى قوانين الطبيعة!..

قانون عقله يريد وصل الإيراد بالذرية، وقانون الطبيعة لا يرى صلة بين الإيراد وبين الذرية... العقل الإنسانى المحدود يريد أن يحبس نتائج النسل الآدمى فى نطاق الزمن الآدمى القصير، وفى حدود التكاليف المالية والمعاشية !...

وعقل الطبيعة — غير المحدود — لا ينتظر نتائج هذا النسل إلا بعد أجيال تتعاقب فيها الدول وتتغير النظم!...

وهنا السر فى أن الإنسان الفطرى ينتج من الذرية كثيرًا!...

والإنسان المتعلم ينتج منها قليلا!.. ذلك أن الإنسان الفطرى أكثر مقاومة لعقله واندماجًا فى الطبيعة وخضوعًا لقوانينها، ولكن الإنسان المتعلم أكثر مقاومة للطبيعة وخضوعًا لعقله!...

الإنسان الفطرى هو وحده الذى ينطبق عليه قول المفكر الصينى!... وهو وحده الذى مثله مثل الشجرة والزهرة، ينتج وينسل بلا تفكير، وعلى الطبيعة أن تفرز إنتاجه الصالح من الطالح، وتبقى القوى وتميت الضعيف، وهو يتقبل حكمها باستسلام وإذعان!...

أما الإنسان المتعلم فلا يقبل حكم الطبيعة فى ذريته!.. إنه هو الذى يريد أن يقرر بنفسه مصايرها، ويوجهها فى الحياة تبعًا لبرنامج يضعه بعمله، ويرسمه بعقله!...

إنها الحرب إذن بين الإنسان المتعلم المفكر، وبين الطبيعة!...

وما دامت الحضارة تقلب كل إنسان إلى متعلم مفكر، فلابد أن تتسع هوة الخلاف بين الطبيعة والإنسان إلى حد نرى فيه النسل يومًا يكثر أو يقل تبعًا لبرنامج رسمى تضعه الدولة وتطبقه على الأفراد !..

المخلّص من كل ذلك الحكمة... فإذا أعطى الإنسان الحكمة، فإنه يمسك بالميزان الذى يكفل له التوفيق بين إرادته وإرادة الطبيعة...

تنوع الأجيال

فى سورة « هود » من القرآن الكريم آية ، قلَّ من فطن إلى مراميها البعيدة . تلك هى :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ﴾

مهما يكن من أمر التفسيرات التى شرحت بها هذه الآية ، فإنه يبدو لى أن فى جوفها وميضًا ينم أحيانًا عن أسلوب الله فى خلق الكون.. فذلك الاختلاف بين الأجرام فى الأحجام هو سر تجاذبها وتماسكها وتعاونها، ولو أن الله جعل الأجرام حجمًا واحدًا، وشبها واحدا فى كل العناصر والأوزان والصفات لانفرط عقدها، وانحل رباطها... أما فى مجال أرضنا وسكانها من الآدميين ــ فإن قانون الاختلاف له مثل هذه الضرورة واللزوم!.. ولقد قرأت أخيرًا للمفكر الإنجليزى «جون هادهام» فخيل إلىَّ أنه يكتب

بوحى من تلك الآية القرآنية هذه السطور : « لو أن كل بلد كان له من الهيئة ومن المواد الخام ما لسائر البلاد ؛ — لكان كل بلد يستطيع الحياة مستقلا تمام الاستقلال عن جيرانه ، ولكن الله نظم خريطة الدنيا على نحو يجعل كل بلد فى حاجة كبيرة أو صغيرة إلى كل بلد !... وهذا القول يصدق أيضًا على الشعوب ، فكل شعب قد جعلت فيه مزية يستطيع بها أن يضيف شيئا إلى مجموع الشعوب ، وكل شعب مدين للشعوب الأخرى بشىء يعوزه فى إنتاجه أو ينقصه فى تركيبه !...

وما يقال فى شعب يقال فى الأفراد الذين يتكون منهم ؛ فما من مجتمع صحيح البنيان إلا إذا كانت صحة بنيته ناتجة من أفراد لا يتشابهون فى نوع العمل واتجاه التفكير ... لأن تلك الصحة إنما قوامها تلك المساهمة التى يؤديها إلى المجموع كل فرد بعمله الخاص ، وتجاربه الشخصية ، ومزاجه المختلف عن سواه ، وطبيعته ونظرته !... وهل نستطيع أن نتصور قيام مجتمع ، يتكون من أفراد كلهم متشائمون فى النظرة أو كلهم متفائلون وكلهم ذو حرص أو كلهم مهملون ؟.. وكلهم شعراء ؛ أو

كلهم مهندسون ؛ أو كلهم خطباء ؟!...

* * *

وإذا أردنا أن نكمل الصورة ، فلنهبط إلى الأعضاء فى جسم الفرد !... فالصحة فى جسم الفرد قوامها أيضًا ذلك الاختلاف فى وظائف الأعضاء !... فالرأس يفكر ، والقلب يشعر ، واللسان ينطق والأذن تسمع ، والقدم تسير !... وإن هذه الصحة لتنهار يوم نرى كل هذه الأعضاء تترك وظائفها المختلفة ، وتتجه كلها إلى وظيفة واحدة متشابهة للجميع ،وهى التفكير !... نعم ، ماذا يكون حال الجسم لو تمرد القلب ، واللسان ، والأذن ، والقدم وقالت كلها : لن نشعر ، ولن ننطق ، ولن نسمع ، ولن نسير !... نريد كلنا أن نكون مثل الرأس ، فلا نصنع شيئًا سوى أن نفكر ..! معنى ذلك ولا ريب هو شلل الجسم كله وسقوطه فى مكانه ، لا يتحرك ، ولا ينطق ولا يشعر ولن يغنيه تفكيره شيئًا !...

أسلوب الله فى خلقه ؛ يبدو إذن من ذلك الاختلاف : فى الصفات ، والهيئات ، والسمات !... هنا سر التناسق فى الخليقة

أى سر تضامنها : فأعضاء الجسم متضامنة فى العمل ؛ لأنها مختلفة فى الوظيفة ؛ ولو أنها تشابهت فى الوظيفة لما تضامنت فيما بينها ؛ ولاستقل فى الحال كل عضو عن كل عضو ؛ وبهذا الاستقلال يتفكك الجسم ويتفتت الفرد !..

* * *

فإذا انتقلنا إلى مجال الرأى ، وجدنا أن اختلاف الآراء فى المجتمع البشرى ضرورة من ضرورات الطبيعة ؛ أى مظهر لإرادة الله !.. وهنالك فرق بين الاختلاف فى الرأى ، والاختلاف فى العقلية ؛ فقد تتشابه العقلية فى شخصين ، ويختلف الرأى بينهما !...

والمجتمع السليم يجب أن يقوم على قدر من الوحدة والانسجام فى عقلية الأمة ، وأجيالها ومقومات شخصيتها العامة ؛ — دون أن يؤثر ذلك فى اختلاف الآراء فيها !... فلا ينبغى أن يشط بنا غرورنا الإنسانى ، فنعتقد أن ما يجول فى رأسنا من رأى ، يجب أن يسود الناس أجمعين !... ما من رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض !...

إن العالم اليوم منقسم إلى معسكرين ورأيين ، كل منهما يريد أن يمحو الآخر من الوجود محوًا : الرأسمالية فى جانب ، والشيوعية فى جانب — وكل منهما يعد من الذرة قنبلة ، يزيل بها خصمه من خريطة الدنيا !... وقد تقع الحرب الفاصلة بينهما ، فى يوم قريب أو بعيد !...

ولكن الذى لن يقع ، هو وحدة الرأى فى هذا العالم ، حتى وإن ظفر أحد الجانبين بالانتصار الساحق الماحق !... ذلك أنه — فى تلك اللحظة عينها — لا يلبث أن ينقسم هذا الرأى الواحد المنتصر إلى آراء تختلف وتشتجر !.. وهكذا دواليك !... لأن هذا ناموس الخالق الأزلى :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ﴾ !...

مبدأ الأجيال القادمة

الدنيامركبة زاهية الألوان ، مذهبة الحواشى ـــ مطهمة الخيول ـــ سائقها الشيطان !...

هذا السائق اللبق يعرف دائمًا كيف يخاطب الركب !... إنه لا يجهل حب الناس للخير ، أو التظاهر بحب الخير ... فهو يتحاشى أن يخاطبهم بلسانه الحقيقى !... لقد ابتدع لهم لغة بارعة براقة ، يقطر منها النبل والسمو !...

فهو ينحنى بجوار باب مركبته ، حتى تكاد جبهته تمس الأرض تواضعًا ، ثم يفتح الباب ، ويقول للناس :

ـــ هلموا اصعدوا ، أوصلكم إلى أنبل الغايات !...

فيصعدون : بعضهم عن إيمان ، وبعضهم عن غرض ، وبعضهم عن تورط !...

أما صاحب الإيمان فيقول فى نفسه :

ـــ الدنيا بخير !... وأحمد الله أن أتاح لنا هذا السائق الطيب ، يذهب بنا إلى ما نؤمن به من غاية شريفة !...

وأما صاحب الغرض فيقول :

ـــ ليس يعنينى الجهة التى يذهب بى إليها هذا السائق ، ولكن الذى يهمنى هو أن أصعد إلى جوار هؤلاء الناس المؤمنين الشرفاء !...

أما المتورط فيقول :

ـــ لم يكن فى نيتى الركوب ، ولكن ما دام الناس من حولى يصعدون كلهم مع هذا السائق ، فما الذى يبقينى أنا من دون الناس ؟!...

ويغلق السائق على الجميع باب المركبة وهو يبتسم ويقفز إلى مكان القيادة ، ويمسك بالأعنة ، ويلهب بالسوط ظهور الجياد !... فإذا المركبة تنطلق ؛ كالمجنونة تسابق الرياح !...

* * *

ولا يمضى قليل ، حتى يشعر الركب برجات عنيفة ، تكاد تحطم المركبة ، وتصيبهم بالدوار ، وتلقى بعضهم على بعض !...

عند ذاك ينظرون من النافذة ، فإذا هم يتبينون أن السائق قد ترك الطرق السوية ، وانحرف عن السبل المستقيمة ، ونزل بالمركبة يخب فى السكك الوعرة ، ويخوض فى المسالك الموحلة !...

فيصيح به أصحاب الإيمان مرتاعين :

— ويلك !... ما هذا الطريق الذى تخوض بنا فيه ؟!...

فيلتفت إليهم السائق ، قائلا بخبث مستتر :

— هو أقصر الطرق !...

فيقول المؤمنون :

— ولكنه ليس نظيفًا !...

فيجيب السائق :

— المهم الغاية التى تقصدون إليها !!.. ما دامت الغاية نبيلة فلا تنظروا إلى الطريق !...

ويعود إلى سوطه يلهب به خيوله ، فتندفع المركبة فى وجهتها ، تاركة الركب المؤمن فى داخلها ، ينظر بعضهم إلى بعض متسائلين :

— أحقًا يجدر بنا أن نسير فى هذا الوحل والطين من

أجل الوصول إلى غايتنا الشريفة ؟!...

ويشترك فى الحديث غير المؤمنين ، من هواة التظاهر والمتورطين ، فيقولون :

ــ ما دام هذا هو أقصر الطرق للوصول ؛ فما الضرر ؟...

فيصمت أصحاب الإيمان ، وقد أسلموا أمرهم إلى الله ، وهم ما أسلموه فى حقيقة حالهم إلا إلى الشيطان !...

* * *

تلك هى مركبة الدنيا من قديم منذ سلم فيها الجميع بمبدأ « الغاية تبرر الطريقة ! » .

أخطر مبدأ عرفته أجيال البشرية المتعاقبة !.. هذا المبدأ وحده هو المسئول عن كل هذه الكوارث التى حاقت بالعالم حتى عامنا هذا جيلا بعد جيل !...

كل ساسة العالم وقادة الشعوب ، فى الأمس واليوم ، وفى الغد أيضًا ، ولا ريب ، يسيرون على هذا المبدأ . مخدوعين بالوهم أنه أقصر طريق ؛ للوصول إلى غاياتهم ، التى قد تكون فى بعض الأحيان نبيلة ، ولكن الذى يحدث دائمًا هو ما يحدث لركب

المركبة التى يقودها الشيطان !... إنهم لا يظفرون إلا بالطريق الموحل ، أما الغاية فلا تظهر لهم أبدًا فى الآفاق !...

ذلك أن الطريق الملتوى القذر ، لا يوصل أبدًا إلى الخير ولا إلى الشرف ! إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل !... إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه ، ولا شىء غير ذلك !...

والخير هو فى ذاته الطريقة والغاية ؛ لأنه شعاع من أشعة الله ، والله تعالى غاية ؛ لابد أن يكون طريقها نورًا وخيرًا !...

فلو اتفق قادة العالم المجتمعون حول موائد السلام ، وقادة الشعوب والمجتمع والفكر الباحثون فى مستقبل الإنسانية ؛ — على أن يحطموا أولا مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » لجاءت النتائج باهرة !... فإن مناورات الساسة ستختفى ، وأساليب الكذب والمداراة والنفاق والخداع ستزول ، ولن يبقى أمام الجميع غير طريق واضح نظيف !... إذا أوصلنا إلى الخير العام ؛ فهو الهدف ، وإن لم يوصلنا إلى إصلاح سريع ؛ فحسب العالم أنه سار فى طريق خال من الشر والقذر !... وإذا لم يكن هذا الطريق

النظيف هو فى ذاته إصلاحًا وخيرا ، فلن يعرف العالم الإصلاح والخير عن طريق التدمير والشر !...

هل لنا أن نأمل فى الأجيال الجديدة ظهور مبدأ جديد ، يتخذه العالم كله دينًا وعقيدة ويكون شعاره :

« الغاية النبيلة فى الطريق النبيل !... »

* * *

شبح جيل

ذهبت إلى شارع « بلبور » ذلك الحى النائى من أحياء « باريس » — حيث كنت أقيم بعد الحرب العالمية الأولى — فماذا وجدت ؟... وجدت الشارع الضيق كما كان ، ووجدت حجرتى كما كانت ، مفتوحة النافذة على الفضاء الواسع ، وأعترف أنى تأثرت ، وشعرت برجفة ؛ فقد خيل إلىّ أنى أرى شخصًا فى النافذة ، شخصًا أعرفه ، شابًا نحيل الجسم أسود الشعر ، يرسل البصر إلى الأفق البعيد ؛ كأنما يريد أن يهتك حجب الغيب ؛ ليطالع ما خط فى لوح قدره !... ولكن القدر — فيما يبدو — ما كان قد خط حرفًا واحدًا فى اللوح !... إنما وقف ممسكا به ينتظر — ينتظر الرسم الذى خطه الشاب لحياته !... نعم ، لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه « خريطة » واضحة المعالم ، دقيقة التفاصيل !... كان قد طرح

فى مصر مهنة المحاماة والقانون ؛ ليمضى فى حمل القلم ، ويقول للناس أشياء ، يعتقد أنها قد تنفعهم !... وما كان يريد غير ذلك ، ولا يطمع من حياته فى غير ذلك — فلا الجاه العريض كان يغريه ، ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ، ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه !...

وعندما يضع « إنسان » لحياته الخاصة خطة ، فإن « القدر » أحيانًا يأخذ وينفذ !...

لذلك تقدم « القدر » فيما يظهر ، إلى الشاب وتسلم منه الرسم ، ونقله إلى لوحه وهو يهمس باسمًا : ما دمت أنت « المهندس » الدقيق لبناء حياتك ؛ فلن أكون أنا غير « المقاول » المنفذ الأمين !...

ولقد بر «المقاول » فعلا بالوعد ... وأتم العمل ... وأقام البناء طبقًا للرسم ... لا أكثر ولا أقل ...

* * *

وددت لو أستطيع أن أسأل ذلك الشاب الذى تخيلته فى النافذة :

— أيعجبك هذا البناء ؟!...

لم أتلق بالطبع جواب ذلك الشاب !... ولست أدرى بماذا كان يجيب فى مثل سنه ؟... ولكننى سمعت الجواب من أعماق نفسى أنا :

— لا ... لا يعجبنى ...

وهنا ... خيل إلىَّ أنى أسمع « القدر » يقول بنبرة تهكم :

— الذنب ليس ذنبى ... لقد نفذت ما تسلمت ... إن كان هناك عيب فهو عيب الرسم !...

فقلت له فى الحال :

— اطمئن ... ما من أحد يتهمك أنت ... ما من شك أن المسئول هو ذلك المهندس « الغشيم » !..

فقال مزهوًا :

— عندما يترك لى ، أنا القدر ، مهمة الرسم ، فإنى أفعل المعجزات ؟...

فقلت له :

— بالتأكيد ... ولكن ماذا تقول فى أولئك الأغرار الذين

يتصدون للهندسة ووضع الخرائط ، فيحبسون حياتهم داخل رسم خيالى ... لا يستطيعون منه خروجًا أبد الدهر ؟!.

فقال :

ــ مهما يكن خيال الإنسان فهو لن يطاول خيالى !... أستطيع أن أدلك على عشرة تعرفهم ، ولا شك أنهم اليوم من أصحاب الملايين أحدهم كان حوذيًا فى عربة نقل ، والآخر بائعًا جائلًا من باعة « الخردوات » ، والثالث عاملا فى حانوت فواكه ... وهلم جرا ... ما من واحد منهم وضع لحياته خطة أو تخيل لمصيره رسمًا !... تركوا كلهم لى أنا مهمة الرسم ، وعهدوا إلىَّ بهندسة بناء حياتهم فصنعت لهم ما لم يخطر لأحد منهم على بال !...

فقلت له :

ــ ماذا صنعت لهم ؟...

ــ أقمت بناء حياتهم ، على أعمدة من الذهب !...

أعطيتهم المال ؟!...

ــ نعم ... أغرقتهم فى المال !...

ـــ نعم !... أغرقتهم !...

قلتها هامسًا ، وأناأهز رأسى ، تلك الهزة الطويلة التى تطوى التهكم المستتر !...

فقال « القدر » :

ـــ ماذا تقصد ؟... ألم أعطهم أكثر مما كانوا ينتظرون ؟...

فقلت على الفور :

ـــ هذا صحيح ؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون من الحياة أكثر من ذلك ...

فقال متخابثًا :

ـــ وماذا فى الحياة أكثر من ذلك ؟!...

فقلت باسمًا :

ـــ ألا تعرف أنت ؟!...

فقال :

ـــ أتعرف أنت ضوءًا أشد من وهج الذهب ؟!.

فقلت فى الحال :

ـــ القلوب الصغيرة هى التى تضاء بالذهب ، أما القلوب

الكبيرة فلا تستطيع جبال الذهب أن تضىء أرجاءها وأعماقها !...

فقال :

ــ أنا الآن إذن فى نظرك مهندس ومقاول من نوع رخيص .

فقلت :

ــ أنت مهندس ومقاول ، اعتاد أن يرسم ويقيم البيوت الصغيرة !... لقد تبين لى الآن أن البيوت الكبيرة لا يرسمها غير أصحابها !...

فقال بخبث :

ــ ولماذا شكوت الساعة إذن من بناء حياتك !؟...

فقلت مطرقًا :

ــ لأن الشاب الذى وضع الرسم ، كان حسن الظن واسع الخيال ، لقد خط على صفحة ذهنه بيتًا كبيرًا .... كبيرًا جدًا ، لم أستطع أنا أن أملأه أو أتخذ مكانى فيه !... إنى حبيس قصر رحب ، لم يستطع إيمانى ، ولا جهدى ، ولا قدرتى ، أن تشغل

كل قاعاته وأبهائه ...

* * *

قلت ذلك وانصرفت خارجًا من شارع « بلبور » بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على شبح الشاب الواقف فى النافذة ، وهمست .

ـــ وداعًا !... عفوًا ... لم أستطع أن أفعل أكثر من ذلك !.. لعلك أنت الذى بالغت فى التفاؤل !...

ومشيت فى الطريق الذى كانت تقام فيه السوق كل أسبوع ، ويذهب إليها الشاب ليحمل مؤنته من الأرز والبيض ، وينفق « الفرنكات » القليلة ، التى لا يملك غيرها على مدى الشهر الطويل ولكنه كان سعيدًا ؛ لأنه ما بالطعام وحده يعيش الإنسان !... نعم كان سعيدًا ، بالأمل الذى يلمع فى الأفق ؛ كأنه نجم !...

ما تغير شىء فى ذلك الحى القصى ، إلا ذلك النجم الذى اختفى والأفق الذى غشاه الضباب !..

* * *

بين جيلين

جاءنى ذات صباح أديب شاب.. وقدم إلىّ رواية مصرية ألفها ونشرها فى كتاب ... وهو مزهو فخور منتعش ، كشجرة آتت ثمارها ، فحملت كتابه فى يدى بعناية وحنان ... أقرأ العنوان .. ثم شرعت أقلب بعض الصفحات ، وإذا حركة الباب تبلغ أذنى ، فرفعت عينى فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس مشرقة الوجه ، وضاحة الجبين : ــ تستأذن وتدخل وتجلس ، قبل أن تمنحنى وقتا لرد أو جواب ، ولم تنتظر منى كلاما ؛ فقد انطلقت هى تقول بلسان فصيح وجنان ثابت :

ــ إنى قارئة ساخطة ثائرة.. جئت أوجه إليك سؤالا واحدًا: ماذا تصنع الآن ؟... مضى العام تلو العام ، دون أن يظهر لك كتاب فى السوق : أهى الصحافة التى شغلتك ؟...

وأشارت بيدها إلى جو الحياة الصاخبة الذى يحيط بمكتبى !..

* * *

والتفت إليها لأجيب ... ولكن الشاب سبقنى صائحا بحماسة: أمن الضرورى أن يؤلف هو وينشر؟.. أليس فى الدنيا كتب أخرى جديرة بالقراءة تظهر فى كل حين ؟...

فنظرت إليه الفتاة دهشة ، ثم نقلت بصرها إلىّ كالمتسائلة ؟.. فوجدتنى أهز رأسى موافقًا مصادقًا مؤمنًا ... فعادت إلى الشاب قائلة :

ـــ إنى أسأله هو عما يشغله ؟!...

فقال الشاب بقوة وتدفق :

ـــ ما لنا وماله ؟... فليشغل نفسه بأى شىء ، خيرًا من أن يملأ مائتين أو ثلاثمائة صفحة يجعلها قصة يتقدم بها فى كل موسم .. حتى يقال إنه دائب على الإنتاج ؟... ما كان أسهل عليه أن يكرر نفسه ؟... ويخرج حلقات لا تنتهى على نمط « عودة الروح » أو « عصفور من الشرق » أو « الرباط المقدس » أو « المسرحيات الاجتماعية والذهنية » ، أو يستغل على الأقل كتب التاريخ ، يستخرج منها قصصا لا تنفد ، وينشر فى كل موسم ما تشائين ويشاء أمثالك ، لمجرد النشر أو الكسب أو إثبات الوجود أو إظهار

النشاط !...

ـــ أتراه يستنكف من فعل ذلك ؟... أو لا يرى له جدوى ؟!

ـــ اطرحى عليه هذا السؤال ... ها هو ذا أمامك ؟!...

* * *

فالتفتت إلىّ الفتاة لحظة ، ثم انصرفت عنى يائسة إلى الشاب :

ـــ إنه يهز رأسه دائمًا ... أجب أنت !...

ـــ ولماذا أجيب عنه ؟.. ولماذا تصرين على الكلام فى شأنه ؟... إذا أردت فإنى أحدثك عن نفسى ... فأنا ولا شك ملم بكل تفاصيلها ، وأنا أديب ومؤلف وروائى و ...

ـــ عجبًا !... ولكنى لم أجئ لأتحدث إليك !..

ـــ هذا خطأ منك أيتها الآنسة !... لو كنت مكانك لسألت توًا عمن يكون هذا الشاب الموهوب الذى تدخل فى الحديث بهذه الشجاعة ، وطلبت أن يقدم إلىّ ... وأن يحدثنى عن كتابه الذى ظهر حديثًا ؛ لأطمئن على أن الأدب بخير ... سواء ألف صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف ... ونشر كتبا أو لم ينشر ، وعاش أو لم يعش !...

ــ إنها حقًا لشجاعة ، بل جرأة !.. إنك تتدخل على نحو ...

ــ لا تنظرى إلى « صاحب الحجرة » !... إنه لن ينقذك منى ولن يتكلم ... ولن يبت برأى .. إنه كما ترين يجيبك دائمًا بهز رأسه !..

ــ هذا صحيح !... وأنت ، هل تعرفه منذ زمن طويل ؟...

ــ أعرفه منذ خمس عشرة سنة ... كنت يومئذ فى الخامسة عشرة وكان أهلى فى البيت يتحدثون عن « عودة الروح » ولكنى لم أحفل بقراءتها شخصيًا إلا عندما بلغت العشرين ... فى ذلك الوقت نشأت مع كثيرين من أقرانى فى الجامعة وشباب جيلى ، وشببت معهم وهم يلغطون ويتناقشون فى الرواية المصرية الطويلة التى شق طريقها ... ويقسمون بحماسة الصبا أنهم سوف يمضون فى هذا السبيل ، ويخرجون يوما روايات مثلها وخيرا منها عن حياتنا القومية ، وقد برّ بعضهم بوعده ، ونشر قصصا على جانب كبير من الطرافة والإتقان !... وأستطيع أن أؤكد لك ــ أيتها الآنسة ــ أنى أحد هؤلاء النابغين !... أقولها بكل صراحة وبكل تواضع !...

ـــ إنى متأكدة من صراحتك وتواضعك ، وعلى الرغم من كل شىء ، ثق أنى بدأت أهتم بأعمالك ... ولكن ، ألا تسمح لى قبل ذلك أن أعرف شيئا قليلا عن الأمر الذى جئت اليوم من أجله ؟!

ـــ تفضلى !... ماذا تريدين أن تعرفى ؟..

ـــ السؤال بالطبع ليس موجها إليك .. أردت أن أعرف كيف يترك فنه العالى ، لينزل إلى الكتابة فى الصحف ؟..

ـــ والله لقد حيرتموه !... إذا ارتفع بفنه قلتم كيف لا يهبط إلى الناس : يشعر بشعورهم ويدرس أحوالهم ، ويعرف أنباءهم ، ويعرض شكاواهم ، ويدافع عن حقوقهم!.. فإذا فعل عدتم فقلتم : أين العزلة التى يكتب فيها لطائفة من الخاصة ... نصيحتى لك أيتها الآنسة ألا تلقى هذه الأسئلة السخيفة !... لا تؤاخذينى ! إن من يكتب لمئات الألوف ، ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ويرتفع بهم بعض الارتفاع ، لهو رجل يؤدى خدمة عامة !...

ـــ وفنه ؟!.

ـــ ما من فنان يستطيع أن يهمل فنه وإن أراد !... ولعلك

تخلطين بين الفن وبين إنتاج الكتب فى كل موسم !... تخلطين بين الفنان والمعلم ، وبين المنتج والتاجر !... ماذا تسمين ذلك الذى يسكت عندما ينبغى له السكوت .. عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة ، يدرس خلالها نفسه من جديد ، ويزن تأملاته ، ويختزن تجاريبه ، ويراقب أحوال الناس وتطورات المجتمع ... ويراجع أعمالنا القديمة ، ويبحث — صامتًا صابرا — عن طرائق للتعبير الفنى جديدة !... إن النشر يا آنستى سهل ، ولكن الصعب هو البحث الطويل فى الظلام !... لعلك تجدينه الساعة مشغولا بالبحث عن نوع من الفن ، لا علاقة له بكل ما عالج من قبل ... « الفن طويل والحياة قصيرة » !... تلك كلمة « جوتة » المشهورة !...

إن من يريد أن يمسك بتلابيب « الفن » ... فى حياته المحدودة يجب أن يقفز فوق كل تكرار لا غناء فيه !... وأن يركض خلف سرابه فى كل طريق حتى للقبر !...

* * *

وسكت الفتى ، ونظر إلىّ كأنه يسائلنى : هل أصبت؟...

فتلقى منى الجواب هزة من الرأس أيضا ... أما الفتاة فقد أكبرت كلام الشاب الأديب وقالت :

ـــ اسمح لى أن أبدى إعجابى بفهمك للفن ... وأن أسألك عن كتابك !... فإنى مشوقة إلى قراءته .. فى أى المكتبات أجده ؟...

ـــ آسف كل الأسف يا آنسة ... إنى لم أجئ إلا بنسخة واحدة ... ولكن إذا أذنت فإنى أرافقك الآن إلى أقرب مكتبة ، وأقدم لك نسخة ممضاة ... ألديك ما يبقيك هنا الساعة ؟..

ـــ لا داعى لبقائى ، نستطيع أن نذهب توًا !...

ونهضت فى الحال وحيتنى تحية سريعة ، وانصرفت ... ونهض الشاب لينصرف فى أثرها بعد أن حيانى هو الآخر تحية سريعة ، ولم يكد يبلغ العتبة حتى بدا له رأى ، فعاد أدراجه إلىّ واقترب منى هامسًا راجيًا :

ـــ المكتبات الآن مغلقة ... أكون شاكرًا لو تفضلت ، ورددت إلىّ هذه النسخة لأهديها إليها الآن !... أما أنت فسأحضر لك نسختك فى وقت آخر ... إن المستقبل أولى من

الماضى !...

فما تمالكت أن مددت إليه يدى بالنسخة ... وأنا أغمز له بعينى راضيًا باسمًا :

ــ صدقت !... وإنى لأراه مستقبلا مشرق الوجه و ضاح الجبين !..

* * *

تلاقى الأجيال

لم يكن من المتصور عندى أن أطرق موضوعا كهذا من قريب أو بعيد . ولكن الأمر لاح لى ممكنا عندما بدأت أنظر إليه من زاوية أخرى ... لم تعد المسألة مجرد علاقة بين أب وابن : لقد خرجت من هذا الإطار الضيق إلى إطار أوسع وصورة أكبر : هى صورة العلاقة بين الأجيال فى عصرنا الحاضر . وتذكرت كلاما نشرته فى هذا الموضوع منذ أكثر من عشرين عاما ، فنهضت أراجعه فوجدت لدهشتى مقالا بعنوان :

« انفصال الأجيال » قلت فيه يومئذ إن الجيل الجديد « يصر على أن يكون له رأى فى محيط البيت والمدرسة والمجتمع ، وقد جاء هذا الجيل فى ظروف عالمية تبرر الانقلابات وفى ظروف قومية تنادى بالحرية واجدا من الجيل السابق الذى يحتضنه مؤازرا لنزعته ومشجعا ... لأن هذا الجيل السابق لم يكن إلا جيل الثورة المصرية

فى عام ١٩١٩ ... على أن أبناءنا لم يقفوا عند هذا الحد ؛ فما من شاب يقبل منك الآن نصحًا ... ما من شاب يقنع اليوم بأن يكون له فى شئون أسرته رأى وفى مذاهب السياسة رأى وفى برامج دراسته رأى وفى أساتذته رأى . الجيل الجديد يعيش فى عصر التغييرات الخاطفة والتطورات السريعة والاختراعات المفاجئة ، فأصبح لذلك أقل من الجيل الذى سبقه صبرا وجلدا وأقوى منه رغبة فى كل تغيير وأعنف ثورة على كل ثابت مستقر ... الخلاف الحقيقى فى ذلك التصادم بين الأجيال هو فى ضياع الاحترام والثقة ... والسير لا بروح التعاون بل بروح التحدى .

تاريخ هذا الكلام هو ١٩٤٧ — ١٩٤٨ — ولم يكن بالطبع قد وصل الإنسان إلى القمر ! أو عرف انعدام الوزن والمشى فى الفضاء مقلوب الرأس .. فهل ترى اليوم الصورة قد تغيرت بين الأجيال ؟ أنا اليوم أب لابن يمثل جيلا جديدا . جيل الشباب الذى جاوز العشرين ولم يبلغ الثلاثين . يفصلنى عن هذا الجيل ثلاثة أجيال.أى حوار يمكن أن يقوم بيننا ؟ وما مدى التعاون المطلوب منى بالنسبة إليه ؟... لقد كان والدى أنا يجهل عنى

الكثير، يجهل أهم ما فى حياتى وهو الفن . ما كنت أجرؤ على التلفظ بكلمة الفن أمامه. كنت إذا اقتضى الأمر أخففها وألطفها بكلمة أقرب إلى القبول والاحترام هى « الأدب » . ومع ذلك ما كان يبلغ سمعه صلتى بالأدب ــ وكنت قد تخرجت فى مدرسة الحقوق ــ حتى يستعيذ بالله ويستحوذ عليه الضيق والقلق . وصرت كلما صادفت صديقًا له بادرنى بقوله : « أبوك يشكو إلى طوب الأرض فزعا من أن ابنه قد أدركته حرفة الأدب ! » ... وأنا الآن أنتمى إلى الأدب والفن وشاء القدر أن يكون لى ابن أراد أن ينتمى هو الآخر إلى حرفة من حرف الفن ! فهل تغير الموقف ؟...

إذا سألت ابنى فهو قائل لك إنه لم يتغير شىء ، وإنه يشعر بنفس الانفصال .. لم يقل لى ذلك فى مواجهة ، أدبه يمنعه ، ولكن رأيه نقل إلى مسمعى ، وجعلت أسائل نفسى : كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ومع مثلى وفى زماننا هذا ؟!... وأخذت أحلل الموقف لأكتشف أين يكمن الخطأ ؟... أهو فى هذا التجاهل التام لما اختاره هو من طريق فنى ؟ ربما ... فقد استقرت فى أعماقه

فكرة ، من وقت ليس بالقريب ، أنى غير متحمس لما يفعل وأنى كنت أفضل بعده عن طريق الفن ... ولست أدرى منشأ هذه الفكرة ... ربما استشفها من ظواهر كثيرة بدت من اهتمامى بتوجيهه منذ صغره إلى أن يكون مهندسًا .. وقد سايرنى هو فى هذا الاتجاه بتفوقه البارز فى علوم الرياضة إلى أن غافلنى وظهر فجأة بميول فنية قبل السنة الإعدادية ... كان يكثر من الاستماع إلى الموسيقى الأجنبية فى البرنامج الأوربى للإذاعة .. ولم أشعر ذات يوم إلا وفى يده جيتار قيل لى إنه زهيد القيمة طلبه من والدته فى عيد ميلاده ... ولم أر فى الأمر خطورة وظننتها هواية عابرة ... ولم أجد ضرورة فى أن أقيم الدنيا وأقعدها كما فعل أهلى يوم رأوا فى يدى عودًا أعزف عليه إلى جوار الأسطى حميدة المطربة العالمة ، فالزمن قد تغير ، واعترف التعليم الرسمى بالنشاط المدرسى وهوايات الشباب ...

ولكن هواية ابنى سرعان ما انقلبت جدًا .. وأصر على المضى فيها وإتقانها .. وإذا بوالدته قد استقدمت له أستاذًا يونانيًا متمكنًا علمه العزف حتى برع فيه ... وإذا بى أعلم بعد ذلك من ناظر

مدرسته أنه وقد نال الإعدادية قد كون فرقة موسيقية بالمدرسة أثارت الاهتمام ... وجاء الصيف فاستأذننى فى الانضمام إلى فرقة طلبته للعمل معها أمام الجمهور الواسع خلال الإجازة .. .فلم أسمح له ورفضت رفضًا بائًا ... فأذعن على مضض ... إلى أن كان فى سنته التوجيهية فأتم تكوين فرقته الحالية ، ولكن فى نطاق ضيق وأطلقوا عليه اسم « بلاك كوتس » ... واستطاع أن يعمل بها أمام الجمهور خلال إجازة الصيف بدون علمى ... وأكمل دراسته الثانوية والتحق بمعهد السينما وقد تأكد لى أن الموسيقى تجرى فى دمه ولا أمل فى أن تفارقه ... هنا أدركت أنا أن لا مفر ... وكنت قد قرأت لأحد كبار المخرجين السينمائيين أن الموسيقى بما فيها من إيقاع هى الذراع اليمنى للمخرج .. فسكت ، وأصغيت إليه يوم طلب منى السماح له بأستاذ من الكونسرفتوار يتلقى عليه أصول الهارمونيه ... وقد نفعه ذلك بالفعل فى تأليفه المقطوعات الجديدة ، وفى إعادة توزيع وتركيب المقطوعات القديمة على نحو جديد خاص بفرقته .. كما سمحت بالسفر إلى إيطاليا وغيرها فى رحلة فنية .. كل ذلك تم وكأنه

رأيه ينتزعه مني انتزاعا ... وجعل يشق طريقه بنفسه وسط ضباب من الفتور يحول بيني وبينه ... لم يجد التحمس له والمساندة إلا من والدته ... ولم يكن بيننا أنا وهو من حديث إلا عن معهده ... كان أحيانًا يجرى تدريباته بالمنزل ويعلو صوت آلاته وأنغامه فيجد دونها باب حجرتى الموصد ...

إذن لم يتغير شيء كما يقول ... ولم يزل هناك انفصال بين الأجيال ، على أن هذا الوضع لم يكن فيما يبدو لى يهمه كثيرًا ، بل لعله كان يجد من الخير له ومن الراحة أن أبقى أنا بعيدًا عن مجاله ...

لكن الذى كان يود — هو وغيره من الأبناء — أن يحدث هو أن يرى الأب يشاركه على الأقل فى بعض الميول.. فهو يعيش عصره تمامًا ... يجيد السباحة والصيد تحت الماء بالرمح ، ثم الصيد فوق الأرض بالبندقية ويحذق الرماية ويقود السيارة ويحب الرحلات والمغامرات وأفلام السينما التقدمية بكل موجاتها الجديدة وكل مستحدث فى ملبس ومسلك ... إنه ابن عصره ... لكنه ينظر إلى جواره فيجد عصرًا آخر ، يجد أبًا من طراز كلاسيكى ..

هل الانفصال بين الأجيال وضع حتمى لا أمل فى تغييره ؟أم أنه بالتفاهم والتعاون يمكن أن نصحح الوضع ؟... نحن الآن فى عصر بدأ فيه تصادم عنيف بين جيل الشباب والجيل السابق على نحو لم يسبق له مثيل ... وجوهر الخلاف دائمًا كان فى اعتقاد كل جيل سابق أنه صاحب الحكم الأصوب فى شئون العصر وأنه هو المنوط به وحده تكييف الحاضر وتشكيل المستقبل ، باعتباره قمة التجربة التى خاضت كل مراحل العمر ... وكان الشباب يتقبل هذا الاعتقاد بتوقير دون المناقشة فيه ، إلى أن جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفتحت أبواب جهنم الأرضية على صورة رهيبة ، وكان الشباب هو الحطب والوقود ، وأدرك أن كل ذلك وقع بتوجيه الجيل السابق .. هنا بدأ يتساءل : « وأين قمة التجربة إذن ؟! » إن الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبر التاريخ ... وبدأ الشك يخامر الشباب ... وبدأت حصون الشيوخ تهتز ... وانهارت الثقة ... ولكن الشباب لم يشيد لنفسه بعد حصونًا ؛ إنه حديث عهد بثورته وشعوره بذاتيته ... ليس عنده بعد أفكا واضحة منسقة ... إنها ككل ثورة فى بدايتها ... تدك الحصو

القديمة ثم تقف حائرة بعض الوقت لا تدرى ماذا تفعل !... لذلك عندما قامت ثورة الشباب فى فرنسا وهزت حكم ديجول لم تقم وراءها فلسفة واضحة ..ولم يظهر بين الشباب من استطاع التعبير عنها سوى واحد أو اثنين ، ولم يكن كلامهما أيضًا بالمقنع أو العميق ، وعندما أرادوا شعارات تضاربت الاتجاهات ، وانتهوا إلى رفع صور رجال مثاليين شرفاء مجاهدين من أمثال چيفارا وهوشى منه وماوتسى تونج استوى فى ذلك أبناء أصحاب الملايين وأبناء السوقة المعدمين ...

وقد حاولت الحكومات أمام هذه الثورة .. فهى أخطر لديها من إضرابات العمال ومطالب المزارعين ... ذلك أن حركات الطوائف تقوم على أغراض محددة من رفع أجور أو مستوى معيشة ... لكن صيحات الشباب فى كل مكان من الأرض ليس من السهل تحديدها .. إنها صيحة العصر كله ... إنها يقظة المستقبل الرهيب ... والمستقبل لم يعد كلمة غامضة ... آلة حقيقية تتحرك ... تقف على أقدام أمامنا فى صورة شباب سيعاصر سنة ٢٠٠٠ وما بعدها ... وحده يقف وقد اختفى من

حوله كل المنتمين إلى جيل الشيوخ . وهو لا يريد أن يصل إلى أعتاب القرن القادم وقد دفعته من ظهره عقول تسوس العالم بسياسة القرن الماضى .. لكن كيف السبيل ؟...

ما العمل والشباب لا يثقون ، وهم فى نفس الوقت لا يعرفون ماذا يفعلون ؟ ومن هنا الحيرة التى تبدت فى مسلكهم غير المألوف .. وهم كلما ثاروا اشتد الجيل السابق فى اعتصامه بحصونه ... واتسعت شقة الانفصال بين الأجيال ...

وما دامت الثقة قد فقدت فالكلمات القديمة أيضًا أصبحت محل شك ..

فالنصح والإرشاد والموعظة وغيرها من الكلمات التى يستخدمها الجيل القديم أصبحت فى نظر الشباب مثيرة للسخرية ومرادفة للتسلط والاستعلاء ، مهما يكن فيها من رغبة النفع ونية الإصلاح ...

لقد كان ابنى يصمت أمامى تأدبًا كلما بذلت له النصح والموعظة الحسنة فى أمور تخصه وتهمه . لكنه ما يكاد يتركن حتى يهمس للآخرين : « إنه يريد أن يمارس سلطته

الأبوية ! » ... إذن لابد من تغيير وسائل الاتصال لجيل الشباب ولابد من تعديل طريقة محادثته ، والبحث عن لغة جديدة وأسلوب جديد للتفاهم معه وأول شيء يجب أن نتجنب مخاطبته من فوق أسوار حصوننا القديمة . يجب أن نترك عالمنا ونذهب إليه فى عالمه . ففكرة مراحل العمر المتصلة اتصال درجات السلم ، المؤدية إلى قمة تشرف وتسيطر على بقية الدرجات ، هى فكرة لم يعد لها اليوم قبول . والمقبول اليوم هو أن كل مرحلة لها شخصيتها وذاتيتها وقوانينها ولغتها ومفهوماتها. أى عالمها الخاص . إن مراحل العمر ليست درجات سلم . بل ربما كانت عربات قطار . كل عربة مختلفة منفصلة عن الأخرى بمن فيها وما فيها . ومع ذلك متصلة بباب ضيق ، والقطار كله يسير إلى غايته المحتومة ، وركاب العربة الأخيرة من كهول وشيوخ لا يمكن أن يفهموا ويعرفوا ما يجرى فى عربة الشباب إلا إذا انتقلوا إليها ، وجلسوا بينهم فى مقاعدهم . وهذا ليس بالأمر السهل . إن انتقال راكب من عربة إلى أخرى يجعل الأنظار تتجه إليه فى شيء من الريبة ، فيخيم الصمت على الجالسين ولا تنفتح الصدور وتنطلق الألسنة

إلا بعد الاطمئنان إليه . وهذا لن يحدث إلا إذا نجح فى اكتساب ثقتهم وتفهم همومهم والتحدث بلغتهم ، والنجاح فى ذلك ليس مضمونًا دائمًا . هناك من المفكرين أمثال ماركيوز من أراد الدفاع عن الشباب فتكلم بلغته هو ، وقد صفق له البعض منهم لمجرد وقوف مفكر ممتاز إلى جانبهم ، ولكن المحامى الذى يقف إلى جانب موكله ويكسب قضيته ليس هو بالضرورة الذى يكسب قلبه ويعيش داخل عقليته .

تلك هى الصعوبة لمن يفكر فى رحلة إلى دنيا الجيل الجديد . وهى أصعب بالنسبة إلى مثلى ممن لا تجمعه بالشباب اليوم أرض مشتركة من ميول عصرية أو روح منطلقة ... لذلك عندما اقترح علىّ أصدقاؤنا فى الأهرام وأغرونى بالذهاب لمشاهدة ابنى وفرقته صدمنى الاقتراح ووجدت الأمر شاقـًا ، بل كدت أراه مستحيلا . فأنا الآن لا أخرج ليلا ، فما بالى لو سهرت إلى ما بعد منتصف الليل !.. ولكنهم زينوا لى الأمر ويسروه على مداركى بقولهم إن السهر ليلة واحدة ثمن بخس إلى جانب محاولة فهمك لهذا الشباب . وإنه لمن المستغرب لشاهد على عصره أن يفقد حب

الاستطلاع إلى هذا الحد !..

قلت انتظروا حتى أسأل ابنى أولا ، لأرى وقع هذا على نفسه وهل يسره حضورى حقًا أو أنه سيتوجس منه خيفة .. ولما فاتحته فى الأمر أطرق مليا ، ثم رفع رأسه وقال بلهجة المستريب إنه يعرف مقدمًا شعورى نحوهم وما أنا قائل فيهم . وروى لى أن المغنى فرانك سيناترا عندما استمع إلى ابنته وقد احترفت مثله الغناء وسئل عن رأيه فيها سفهها ورماها بجهل أصول المهنة . كذلك فعل شارلى شابلن مع أولاده عند احترافهم الفن .. إنها نمرة قديمة معروفة أن يقلل الفنان الكبير من شأن أولاده ، تعاليا أو تظاهرا أو خوفا من اتهامه بالتحيز والمجاملة .

فأكدت له أن هذا لن يحدث معى ، وربما حدث لو أن حرفته كانت مماثلة لحرفتى أى الأدب والكتابة ، كنت انهلت عليه فعلا بالنقد وأرهقته بالملاحظات ، وما كنت أستطيع كبح جماح رغبتى فى تقليد سيناترا وشابلن . وكلاهما يشارك أولاده فى نوع الحرفة . أما ونحن مختلفان فى نوع العمل فليس لابنى أن يخشى منى ، ولا أرضى لنفسى أن أخوض فيما ليس لى علم به . ولن

يكون موقفى سوى موقف المشاهد العادى. وأعده أنى سأفرغ من نفسى كل ميل مسبق ومن رأسى كل رأى شخصى . ولن أقدم على المشاهدة بروح التعالى أو الاستهانة أو التحدى . فمهما يكن من أمر اتجاهاتى فى الفن فإنى أكره الظهور بمظهر المستخف باتجاهات الآخرين . ولست أنوى أن أكون المفكر الذى يعتصم بذوقه فى أبراج ألوان من الفن استقر تقديسها مدى القرون ويتعالى على أنواع أخرى جديدة لم تزل محفوفة بالشكوك ، دون أن يكلف نفسه شجاعة تذوقها أو يجازف بالحديث عنها . وأعترف على نفسى أنى كنت ، وربما لم أزل ، من هذا الطراز ؛ وسبق لى أن كتبت مستهينا بموسيقى الجاز ... وأذكر أنه عندما جاء چان بول سارتر وسيمون دى بوفوار إلى مصر أن بدر منى كلام ضد هذه الموسيقى وإذا بى لدهشتى أفاجأ بتقرير غريب من هذين المفكرين لموسيقى الجاز هذه تأكيدًا لما نشراه فى هذا الصدد من كتب وخاصة كتاب « مواقف » لسارتر ، وأدركت يومئذ أنهما لا يريدان أن يبتعدا عن تذوق وتفهم كل ما يتصل بروح العصر .

لكن السؤال الآن : ما هى روح العصر؟ إن الإجابة ليست

بسيطة والرأى عندى أن نتلمسها فى أبرز الدلالات . ولا شك أن أهم ما يدل على روح العصر سرعة الإيقاع وصخب الحركة ، ذلك أن العام الواحد من عصرنا الحاضر تقع فيه مِن الأمور والأحداث وتتم فيه من الاكتشافات والمغامرات ما كان يتم من قبل فى أكثر من مائة عام . لم يعد عصرنا عصر الجلوس والتأمل ، بل عصر التفكير المتحرك . وانعكس ذلك على الشباب الذى فتح عينيه فوجد نفسه فى قلب العصر الجديد فلم يطق جلوسًا ولا هدوءًا ... إنه يريد أن يتحرك مع العصر المتحرك فى موسيقى متحركة صاخبة ، لا أن يسترخى مسمرًا فى كرسى نصف مغمض فى موسيقى ثابتة متأملة.إنه لا يريد مجرد الاستماع بل يريد أيضًا المشاركة . لا يريد أن يبقى فى مكان بل يطمح إلى الانطلاق فى كل مكان ، ويكتشف الأرض سيرًا على الأقدام ، أو قافزًا إلى سيارة مارة ، أو منبطحًا على ظهر سفينة عابرة ، لا يقف أمام عائق من خلو الجيب أو خوف المخاطر أو رهبة المجهول ..

إن أهم مظهر للشباب اليوم هو أنه استشف بغريزة خفية أعظم رؤى المستقبل وهى « وحدة العالم » فالكرة الأرضية الواحدة

المتحدة فى نظر إنسان الفضاء وهو خارجها يراها الشباب كذلك من داخلها ... فاتحدوا جميعًا الأبيض والأسود والأصفر فى كثير من الأذواق والأهداف والمثل العليا الإنسانية ، واجتمعوا فى شبه زى واحد ورقص واحد فى كل مكان تعبيرًا عن حركة الحاضر وبشيرًا بوحدة المستقبل .. إنها إذن دلالة وعلامة .. ربما ليست موجة طارئة .. لكنه قد يكون هو العصر يصبغ بلونه ويحرك بإيقاعه هؤلاء الشباب . وأكثر من ذلك ما شاهدته فى باريس فى أواخر السبعينات من انتشار حوانيت الحلاقة التى تقوم فيها النساء بالحلاقة للرجال . وعليها « لافتة» بها عبارة « مونوسكس » أى « جنس موحد » لا تعرف تسريحة الشعر فيه أهى لرجل أو لامرأة !... ثم شاهدنا أنا والدكتور حسين فوزى مسرحية « الملك لير » لشكسبير ، تمثلها فرقة « شباب » بأسلوب عصرى يسمونه « أسلوب الصدمة » !.. أى صدم الجمهور بالملك لير العجوز فى صورة « شاب » كثير الحركة والعنف يجرى خلف بناته ركلا « بالشلاليت » وصياحًا مزعجًا بشعر « شكسبير » ! فاستعذنا بالله من هذا العصر ! عصر القنابل النووية وصور

« بيكاسو » و « الجنس الموحد » ! أيدوم هذا العصر المجنون إلى قرن آخر ؟!... لا أظن ...

كان القرن الماضى قرن التأمل الجالس ، أما القرن الحالى فهو قرن الفكر « المخبول » الراكض ... وعندما بدأ القرن الماضى يغادر منتصفه وظهرت بوادر الرغبة فى الحركة ممثلة فى فالسات چوهان ستراوس ، استقبلها الشعب فى الحانات والطرقات بالحماس ، وطرقت نغمات « الدانوب الأزرق » أبواب القصور فارتاع النبلاء والأرستقراطيون والمتدينون والمفكرون المتزنون واعتبروها فضيحة !... واستمرت الموسيقى الكلاسيك نفسها فى التجديد إلى حد ظهور نظريات فيها تعتبر « النشاز » نوعا من التجديد !.:.

ولم تكن موجة طارئة كما يتوقع دائمًا التقليديون ، ولكنها كانت استجابة لصيحة العصر النووى الذى لا شك قد ظهرت أعراضه !.. واستمرت فى تطورها واتخذت من الأثواب والتحولات ما نقل الفالس من صورته الماضية إلى صور أخرى ممثلة فى هذه الأنواع من الموسيقى الراقصة الحاضرة ... وأصبح

الفالس الذى كان يعد فى وقته منتهى الحركة هو اليـوم منتهى الهدوء ...

ولكننا نحن الشيوخ الذين عشنا طويلا فى أمجاد القرن الماضى واعتادت أسماعنا موسيقى التأمل ، ولا تستجيب أجسامنا إلى موسيقى الحركة ، ماذا نحن فاعلون ؟...

ما من شك أن موسيقانا القديمة ستظل باقية ... فالإنسانية فى حاجة دائمًا إلى تراثها الخالد الجميل .. ولكن المشكلة هى : هل نغلق أنفسنا مع كنوزنا الخالدة ونسد آذاننا عن صخب أبنائنا ؟ أو نحاول أن نفتحها ونفهم ماذا يفعلون ؟... وأكثر من ذلك أن نحاول جاهدين تذوق بعض ما يتذوقون ، حتى نلتقى بهم ولو فى منتصف الطريق ؟....

تلك هى محاولتى ... وقررت الذهاب والله المستعـان ... وخوفًا من ترددى فى آخر لحظة صمم الأستاذ الفنان صلاح طاهر أن يرافقنى باعتباره أستاذ إسماعيل فى معهد السينما ، قائلا إنه أقدر الناس فهمًا لطبيعته الفنية ، كما شاء الدكتور يوسف إدريس أن يكون معنا باعتباره أقربنا إلى الشباب وأكثرنا اهتمامًا بدراسته

وأشدنا دهشة لعدم معرفتي بما يؤديه ابنى من عروض طالما تمنى أن أشاهدها ..

لكن لماذا لم يدهش أحد دهشة كهذه لعدم مشاهدة ابنى بعرض مسرحياتى ؟!... لقد سئل ابنى ذات مرة فى ذلك فقال : إن هذا من محاسن الصدف ، أن لا يعرض هو أدبًا ولا أعرض أنا موسيقى ، وأن يبقى هو فى دكانه وأنا فى دكانى ، وأن لا يتدخل أحدنا فى شئون الآخر ...

ذكرنى هذا بموقف قديم حدث لى مع والدى ، يدل على ضيق الأبناء بتدخل الآباء فى أعمالهم .. كان ذلك فى يوم من عام ١٩٣٥ ، وكنت مديرًا للتحقيقات بوزارة المعارف وكاتبًا معروفًا ، فزارنى والدى فى مكتبى وكان عندى صحفى يجرى معى حديثًا فى الأدب والفن ... وإذا بى أفاجأ بوالدى يتدخل فى الحديث الصحفي ويريد أن يتجه به الاتجاه الذى يروق له هو ، ويصحح لى آرائى تبعًا لما يريد ويتراءى له ويتفق مع نظراته ومعتقداته ، وما أشعر إلا وقد نحيت أنا وعزلت وعوملت كما لو كنت لم أزل طفلًا ...

نفس هذا الشعور يخالج ابنى اليوم عندما أتدخل فى شأن له ، ونفس الألفاظ يرددها : « والدى ما زال يرانى الطفل الصغير ! » . يظهر أنه ما من شىء يعقد الأبناء نفسيا كهذه الفكرة ...

أذكر أيضا عن والدى أن وقعت فى يده بالمصادفة نسخة مخطوطة لمسرحيتى شهر زاد قبيل نشرها ، وقرأ فيها عبارة تصف جسد شهرزاد الجميل والشهوة التى تسعى فى الظلام ، فجاء يقول مشمئزًا : « ما هذا الكلام المخجل الذى يخدش الحياء ، هذه قلة أدب ، يجب أن تبادر فورًا إلى محو هذه العبارات البذيئة » ... قلت بعد ذلك لنفسى : كيف لو كان عاش ليقرأ الكراسة الحمراء فى روايتى « الرباط المقدس » !...

* * *

حان موعد الذهاب لمشاهدة إسماعيل وفرقته ... كم مضى من الأعوام لم أضع قدمى فى مكان راقص ؟.. وهل أستطيع احتمال الرقص والراقصين ؟... وأخذت أسترجع أيام شبابى فى أوائل العشرينات ... يوم هبطنا باريس أول مرة ... أغرانى اثنان من

أصدقاء عمرى هما المرحومان الدكتور حلمى بهجت بدوى والدكتور مصطفى القللى بأن أتلقى معهما دروسًا فى الرقص ، مؤكدين لى أهمية الرقص فى تلك البلاد ، وضرورة معرفته لمن ينتظر له أن يدعى يومًا إلى الحفلات ويتصل بالمجتمعات فأذعنت لهما ، ودلنا أحد أولاد الحلال على مدرس يدعى « أرتورو » طلب من كل واحد منا ما يساوى جنيهًا وأعطى كلًا منا دفترًا صغيرًا به عشر تذاكر ، كل تذكرة تخول الحق فى أخذ درس ... وضمن لنا بعد عشرة دروس كاملة أن نصبح من مهرة الراقصين ... وذهبنا إلى الدرس الأول .. وبدأ بالصديقين ... ولم يكد يخطو بهما خطوة ويدور دورة حتى بدت عليهما علامات النجابة وظهرت بشائر الفلاح .. أما أنا فعلى الرغم من هدوء الرقصات فى ذلك العهد فقد شعرت بعد أول خطوة ودورة أن الدنيا كلها قد اسودت فى نظرى وأن دماغى هو الذى لف ودار من الدوار ، وأسرعت أوزع تذاكرى على الصديقين ، ورضيت من الغنيمة بالإياب ...

إذن فليهون الله على مثلى هذه الليلة ، وليتمها على خير !...

وأخيرًا حملنى الرفاق إلى السيارة ... ولم يمض قليل حتى وجدت نفسى وسط أضواء خافتة ثم فجأة ساطعة بمختلف ألوان خطفت من كل جانب أبصارى غير المعتادة .. والرقص دائر فى الحلبة ، وعيون براقة مشدودة إليه ، ورؤوس أو نفوس خيل إلىّ أنها تهتز فوق موائد حافلة ، وطعام وشراب يجىء ويروح فوق صحاف كأنها تطير من حولى فى الهواء . وصرت كريفى فى مولد ... مولد يحضره لأول مرة ... وكان هذا الذهول هو ولا شك ما توقعه منى أصحاب المؤامرة فى « الأهرام » . ولقد ذهلت فعلا ولم أدر للحظات أين موضع قدمى ولا إلى أين هى سائرة بى ... وتركت قيادى للرفاق ، يجلسوننى حيث شاءوا ... لا أستطيع أن أصف ليلتى ولا أريد ... كنت قد أخذت على رفاقى العهود والمواثيق أن لا أتأخر كثيرًا عن منتصف الليل ، وإلّا تركتهم وانصرفت وحدى ، فوعدونى خيرًا ... وبدأنا نلتفت إلى ما حولنا ونشاهد ونندمج شيئًا فشيئًا ونتأقلم ... وإذا بهم يفاجئوننى بأن الساعة قاربت تمام الثالثة صباحًا ، فقفزت من مكانى أصيح بهم : كيف حدث هذا ؟...

الحق أنى لم أشعر بالوقت ولا بالملل ... حيوية الشباب الدافقة من حولى معدية كالمرض ... إن الصحة والمرض سيان فى العدوى فى بعض الأحيان .. لم يعد عندى شك أن الجذوع العتيقة الراسخة فى الأرض يمسها نبض من نشاط الأغصان ... هذه الأغصان المتمايلة بلطف مع الأنسام ، المتحركة بعنف مع الرياح ، قانون حياتها هو هذه الحركة التى نسميها الرقص ... وما من قوة فى الأرض تستطيع وقف هذا القانون على مدى القرون .. كان يخيل إلىّ أن جذع الشجرة ينزع من عنف اهتزاز الغصون ، ويخشى على نفسه من الاقتلاع . لكن من يدرينا ؟... لعل ذلك يسره ويبهجه ويرى فيه دليل حياة له هو أيضًا وهو الجامد كخشبة تنتظر السوس ... وقد يستفيد أيضًا ذلك الجذع الحى من حركة الأغصان معرفة اتجاه الريح !...

ولفت الرفاق أنظارى إلى إسماعيل وهو يحمل جيتاره ويعلق ساكسفونه وينتقل بينهما عازفًا ونافخًا ، فلم أتبين فيه الابن الهادئ الصامت فى المنزل على الدوام ... القليل الحديث عن نفسه وعمله ... أحيانًا أشجعه على الكلام أفتح له ما يحبه من

موضوعـات ، فأسألـه عن بعض ما يصادفنـى فى الصحـف الأجنبية من أسماء أعلام الجاز ، فقد يدهشنى أن موسيقى الجاز أصبح لها من الأهمية ما حمل المجلات الأدبية والفنية المحترمة التى أطالعها على أن تفرد لها عمودًا دائمًا إلى جانب عمود الموسيقى الكلاسيكية ...

كان الموضوع يخرجه من قوقعته قليلا ... فهو بطبعه قلما يفيض بالكـلام ... إن الصمت والاقتضاب عنـده أكثر من الإفاضة والاسترسال ... وما يعلمه ويحسه أكثر مما يتكلم به ، ومن القليل الذى تحدث به تبينت أنه ملم كل الإلمام بتفصيلات الفن الذى اختاره .. كما اتضح لى أنه ليس بعيدًا عن الموسيقى الكلاسيك التى ترضينى ، وله فيها نظراته وخاصة إعجابه بفن « شوبان » الذى أهملت أنـا تقديـره حق قدره ... وكـذلك « كواتيورات بيتهوفن » ... واعتقاده أن موسيقى الجاز الحقيقية يجب أن تقوم على أسس الموسيقى الكلاسيك مع الإضافة إليها بعد ذلك كما تشاء ... وكان هذا ما طمأننــى بعض الشىء ... فاعتقادى دائمًا أن نوعية العمل لا تهم ... وأن قيمة أى عمل هى

فى تغميقه وإتقانه ... ورب عمل كبير انخفض بسطحية أصحابه ، وعمل صغير ارتفع بعمق أصحابه ... وذرة التراب تبقى ذرة تراب لمن يراها كذلك ، وتصبح عالما تدور فيه أفلاك لمن يكتشف فيها ذلك ...

وجاءت الاستراحة واقترح الرفاق دعوة أعضاء الفرقة لتحيتهم . وكان هدفهم الأكبر ، كما كان هدف أصحاب هذه المؤامرة فى « الأهرام » هو أن يجمعوا بين الأب وابنه ، وأن يحثوا الوالد على تحية ولده ، وتصوير ذلك بقلمه .... موقف دقيق !... وإذا كان من الطبيعى أن يرحب أب بابنه فإن كتابة ذلك أمر محرج غاية الحرج . ثم إن عاطفة القلق عند أب مثلى تغلب عاطفة الرضا . ولم أعد أدرى كيف أرضى الأطراف التى دفعتنى إلى هذا الموقف ... وبدا لى أن لا نجاة إلا فى الصدق ... فلأكن صادقا مع مشاعرى وكفى ... ومشاعرى كأب مفهومة ... ولا أريد أن أسهب فيها أكثر من ذلك ... لكن الجديد هو أنى شعرت حقًا بفرح غامر وحب وعطف على شباب الفرقة كلهم كمجموعة نادرة الاتساق فى المحبة والمودة والفن ... بعثت فى

نفسى سعادة الصبا ... هؤلاء الشباب المرح الطيب المجتهد ، كنت أمر بهم عن بعد كشبح مخيف يتوجسون منه وهم يجرون تدريباتهم الشاقة بصبر ودأب وإصرار ... كنت أتحاشاهم خشية أن أخجلهم أو أشعرهم بالتدخل فى شأنهم ... كان بينى وبينهم جدار.. وكانت هذه الليلة هى أول مرة نتلاقى فيها بالمصافحة، وأشعر فيها أنهم فرحون أيضًا بهذا التلاقى ...

إن أهم ما فى تلك الليلة عندى هو أن هذا التلاقى بالشباب أشعرنى أن فى الإمكان إزالة الأسوار القائمة بين الأجيال ...

* * *

مسئولية أدباء الشباب

نحن اليوم على أبواب مرحلة من مراحل الأدب العربى الحديث . مرحلة يوشك أن يتسلم فيها أدباء الشباب المشعل الذى يضيء للمستقبل ، وهى مسئولية لا ريب أنهم قد بدأوا يشعرون بوقرها على كواهلهم ، ولذلك جعلوا يعرضون لمشكلات جديدة ، ظنوا أن من واجبهم أن يقطعوا فيها برأى حاسم ، فكان أن تجادلوا فى أمر اللغة الفصحى والعامية ، وأدب المجتمع ، والفن للفن ... إلى غير ذلك من الموضوعات التى لا ينتهى فيها حديث ما دام بابها قد فتح ...

ولا بأس من الحديث فى هذه الشئون ، ولا ضرر من تصارع الآراء فى ميدان الأدب والفن والفكر ، فكل هذه المناقشات منتهية بإذن الله فى ضمير الفنان الحق ، إلى زبد يذهب جفاء ، لأن الفنان الحق لا يصغى إلى كلام ولكنه يعكف على عمل ، وما من رأى فى

الأدب والفن كان له قيمة بمفرده، ولا يعيش الرأى إلا من خلال الأثر...

اصنع أولًا الأثر فى الأدب والفن، وهو يتكلم لك عن آرائك أمام الأجيال، لذلك لن تكون لكل تلك المناقشات، وكل تلك الآراء — ما دامت طائرة فى الهواء، ولم تصاحبها أعمال — قيمة تنفع الناس وتمكث فى الأرض... العمل القيم هو كل شىء فى الأدب والفن، الخلق الإنشائى هو وحده الباقى الراسخ بما نفخ فيه من روح الحياة الباقية...

وهنا يأتى سؤال: ما هو العمل القيم؟... أهو المكتوب بالفصحى أم المسجل بالعامية؟... أهو الذى يخاطب الخاصة أو الذى يكتب للعامة؟... أهو الأدب للحياة أو هو الفن للفن؟...

إذا التمسنا الجواب عند الآداب الكبرى العالمية، فإننا نجد فيها لكل مذهب من هذه المذاهب مكانه المعترف له فيه بالقيمة والبقاء...

فالعمل القيم هو العمل القيم وكفى ...

ومع ذلك يجب أن نحاول قليلا تحديد معنى القيمة فى العمل الفنى، وهو أمر شاق، فلأحاول على كل حال: — أظن أن قيمة

الأثر الفنى مردها من حيث الشكل : إلى الكمال والإتقان والقدرة والتمكن ، حتى عندما يلجأ الأديب الفنان إلى استخدام لغة عامية ، فهو لا ينبغى له أن يلجأ إليها لعجز أو لهروب ، بل لتفوق واقتدار ، ورغبة فنية فى إحكام التعبير ، هكذا فعل « روبرت لويس ستفنسون » وهو من أبلغ الشعراء الإنجليز كتابة بالفصحى عندما جعل البحارة يتحاورون بلغتهم العامية المستبهمة ، وهكذا فعل « شارلز ديكنز » وهكذا فعل « چورچ دى كورتلين » .

القدرة والتمكن والإتقان والطمع فى الكمال ... تلك هى صفات الأثر القيم من حيث الأسلوب والشكل ، أما من حيث الموضوع ، فأبرز الصفات اللازمة هى : الإنسانية ، هى كل ما يؤثر فى الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، وما يدفعه إلى السمو بنفسه ، وما يخطو بمجتمعه إلى مصير أفضل ... كل ذلك فى إطار من المتعة الفنية الرائعة الراقية الباقية .

الإتقان والإمتاع والإنسانية .. تلك أهم صفات الأثر الأدبى والفنى فى نظرى .

فمن أنتج فى الأدب أو الفن عملا غير متقن فى أسلوبه الفنى ولا محكم فى تعبيره الأدبى ، فقد وقع فى العجز الشكلى .

ومن صنع عملا لا متعة فيه ولا روعة فقد صنع شيئًا آخر غير الأدب والفن .

ومن صنع عملا متقنا ممتعا رائعا ،ولكنه فاقد المعنى الإنسانى والفكرة الدافعة للإنسان والمجتمع ... فقد صنع أدبا وفنا .. ولكنه أدب وفن من طراز بارع الصنعة ، زهيد القيمة ، كالزجاج البخس البراق ، لا الجواهر النفيسة الثابتة .

والآن ، فلنعد إلى مسئولية أدباء الشباب ، أو من يسمونهم اليوم كذلك ، وهم أولئك الذين ستتركز فى جهودهم الحركة الأدبية والفنية فى السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة ...

ما هى حقيقة المسئولية الملقاة على كواهلهم ؟...

أول شيء يجب أن يكونوا حراسا على القيم الحقيقية فى الفكر والفن ،وأن يجددوا ما شاء لهم التجديد ، ولكن داخل إطار الإتقان والتفوق والتجويد ، ومن أجل ذلك يجب أن يحاربوا روح الاستخفاف والاستهتار والابتذال فى كل ما يمس الأدب والفن ،

فعصر السرعة بصحافته وإذاعته ، وعصر التعليم العام بجماهيره الواسعة المستهلكة لرخيص البضاعة الأدبية والفنية ... كل هذا يقضى نهائيًا على الأدب الحقيقى النابع من المواهب الحقيقية ، إذ لم يجد فى أدباء الشباب ، قادة الغد ، حاميا قويا للإنتاج الجديد ، وسدا منيعا يحول دون تسرب الغذاء الفكرى الفاسد إلى نفوس الشعب . كما أن عليهم واجب الدفاع عن حرية الأب ومسئوليته ، والأديب الحر فى نظرى هو المسئول أمام ضميره وحده ، عما يكتب وينتج خدمة للإنسان والمجتمع بالطريقة التى يراها هو وحده .. لأن الأديب الحر الحق هو المسئول أمام نفسه وحدها ..

فأدباء الشباب هم المسئولون عن مجتمعهم الجديد أمام أنفسهم وأمام التاريخ الأدبى ، لأنهم هم الذين سيؤثرون فيه بكتاباتهم تأثيرًا مباشرًا فى السنين الثلاثين أو العشرين القادمة . وأن آثارهم ستكون هى القدوة والمثال لجيل جديد من غلمان اليوم ومراهقيه .

وقد يسأل سائل : وما أثر جيلنا نحن فى السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة ؟... فأقول : من يدرى ؟... ربما قرئت كتبنا فى

الغد كما نقرأ اليوم كتب « المويلحى » و « المنفلوطى » .. وقد تصبح أساليبنا صالحة للدراسة التاريخية ، وغير صالحة للاستعمال العصرى .

وهل يستطيع كاتب اليوم أن يكتب بأسلوب « المويلحى » أو « حفنى ناصف » دون أن يتعرض لسسخرية الساخرين ؟...

وهل يكتب أحد اليوم فى إنجلترا بأسلوب « شكسبير » .. أو حتى بأسلوب « ثاكرى » أو بفن « توماس هاردى » أو « جالسورثى » ؟

وهنا تظهر مسألة أدبية ...

ما هو إذن الأثر الحقيقى للقدماء ؟.. ما هى قيمة فن الأجيال الماضية بالنسبة إلى الجيل الطالع ؟..

للإجابة عن هذا السؤال ، يجب أن نفرق بين الاحتذاء وبين الاهتداء ، بين المعالجة وبين التكوين .

الواقع أن الجيل الجديد لا يحتذى فى المعالجة إلى أقرب معاصريه إليه ، لأنه يتصل بأساليبهم الجديدة اتصالا مباشرًا ، ولكن ما من أديب أو فنان يصح أن يسمى أديبا أو فنانًا ما لم يستوعب فن

القدماء يهتدى بهم فى تكوينه الأدبى والفنى .

الأساليب الأدبية والفنية فى تطور مستمر.. ولكن أساليب الأجيال الماضية يجب أن تسهم جميعها فى تكوين الأديب الجديد أو الفنان الحديث .

نخلص من هذا كله إلى أن أدبنا فى العشرين أو الثلاثين سنة القادمة قد يجعل جيلنا صالحا لمهمة الهداية والتكوين ولكنه سيضع القيادة الفعلية والنماذج المباشرة فى أيدى أدباء الشباب .

وبهذه النماذج سيلونون وجه الأدب بلونه الجديد .

وتلك مسئوليتهم ... ويا لها من مسئولية !..

* * *

الشباب والتجديد فى الشعر

لست ممن يتمسكون بعمود الشعر القديم وأوزانه وقوافيه بغير جدال ومناقشة ، فأنا مستعد دائما للإصغاء إلى كل رأى جديد ، وليس كل شعر يدبج على الطريقة القديمة يعجبنى ، فمن شعراء اليوم من يحاول تقليد القديم بفخامة الديباجة ، وغرابة اللفظ ، ورصانة العبارة ، ورنين الوزن ، والتزام القافية ، فإذا بى أجد الناظم ولا أجد الشاعر !.. وإن من بيننا اليوم من يزعم أنه شاعر مجيد لمجرد أنه يملك قاموسًا عربيًا ، ويجيد القوافى والأوزان ، ويجد من يصدقونه ويظنون أنه يقول شعرًا !...

ليس بشاعر حق ذلك الذى يقدم الصخرة ولا يفجرها حياة !... وليس بشاعر حق ذلك الذى يغرف من نهر النثر كلاما ككل كلام !...

هذا من حيث « الشكل » ...

وإذا تركنا الشكل وأخذنا الموضوع ، فإن المسألة تحتاج كذلك إلى بحث آخر . ما هى المعانى الجديدة التى يجب أن يتناولها الشعر الجديد ؟.. وأقول « يجب » على الرغم منى .. لأنى ضد كل إرغام فى الفن عامة وفى الشعر على الأخص ، ولكن كلمة « يجب » أصبحت متداولة بين شعراء الشباب وأدبائهم ونقادهم اليوم ، فلا بأس من استعمالها فى هذا المقام ...

هل كل موضوع تتناوله الصحف ، ويتحدث به الناس فى المجالس يصلح للفن الشعرى ؟... هل موضوعات النثر تصلح أيضًا موضوعات للشعر ؟!...

قد يقال إن الشعر فن إيحائى؛ وليس بالفن الإخبارى .. إنه مصباح كمصباح علاء الدين يكشف لك عن كنوزك أنت المخبوءة فى أعماق نفسك ، ولكنه ليس بالكيس المملوء الذى يفرغ فى خزائنك الخاوية !..

وعلى هذا فالموضوع الذى يعالجه يجب أن يكون متفقًا مع طبيعة رسالته ... أى أن يكون الموضوع شفافًا مضيئًا عاليًا حتى تكون له قوة الكشف والإيحاء لا أن يكون موضوعًا ثقيلا إعلاميًا

يملأ الرأس بمادة محدودة ، ولا أن يكون أخبارًا وأحاديث وتواريخ وحوادث مرددة ممضوغة مما استهلكها النثر فلم يبق للشعر إلا أن يضعها فى « العلب نظمًا محفوظًا » !..

كل ذلك قد يقال ، وكل ذلك صحيح فى جملته .. ولكنى فى الفن أفضل دائما الاعتماد على الفنان .. أكثر من الاعتماد على كلمة « يجب » . إن الفنان عندى هو الساحر الذى لا يسأل عما فعل ، لأنه ما دام فنانًا حقيقيًا أصيلا فإنه قدير بسحره المعجز وحده أن يفعل كل شىء . إنه قدير بمواهبه أن يرتفع بالموضوع العادى إلى أسمى مراتب الشعر ، فى حين أن الفنان الكاذب الردىء قد يهبط بالموضوع الشعرى إلى المستوى السوقى أو الإخبارى ...

تخرج من ذلك كله إلى أن التجديد فى شعرنا العربى من حيث الشكل والموضوع ، لن يكون تجديدًا حقيقيًا وجديًا إلا إذا قام على طاقة كبيرة من الثقافة والموهبة والتجربة تستطيع أن تتحدى الصعوبات وأن تقارعها وتنازلها ، فما من فن يحتاج اليوم إلى أشق الجهود لإنهاضه مثل الشعر ... لا الشعر العربى وحده بل الشعر فى كل لغة .. حتى لقد قيل إن عصرنا ليس عصر الشعر ، لفرط ما

يلاقى الآن فى كل مكان من ازورار وفتور .. فقلما توجد فى عواصم العالم المتحضر اليوم دار نشر تقبل على طبع ديوان شعر ، أو دار تمثيل — إلا فى النادر — تجازف بإخراج تمثيلية شعرية .. ذلك أن الشاعر العظيم الذى يفرض عبقريته على عصره غير موجود الآن فى العالم بالقوة أو الضخامة التى وجد بها فى القرون السابقة ... وكل ما يوجد اليوم محاولات غامضة أو يائسة لتجديد الشعر فى نطاق ضيق من خاصة المثقفين المتحمسين .. فهل معنى ذلك أن عصر الديموقراطية والشعبية هو النثر ؟... أو معنى ذلك أن هذا العصر الحديث لم يوفق بعد إلى الطابع الشعرى الذى يناسبه ويمثله ؟!...

سؤال لم يزل بلا جواب ... وما من جواب لمثل هذه الأسئلة إلا الظهور الفعلى لشاعر العصر المجدد الحقيقى ...

متى يظهر ؟... كيف يظهر ؟... ما من أحد يدرى .. كان هذا العصر حقًا محتاجًا إليه ... وعندما يظهر سيأتى معه بأسلوبه الجديد الذى يناسب عصره ...

* * *

تحذير للشعر الجديد عند الشباب

قد يظن البعض أنك إذا أردت أن تكون شاعرًا جديدًا فما عليك إلا أن تأتى بموضوع مما تتناوله الصحف اليومية وتكتبه نثرًا ، ثم تقسمه إلى جمل مختلفة فى الطول والقصر ، وتضع كل جملة فى سطر ، ولا بأس من أن يكون فى السطر كلمة واحدة أحيانًا أو كلمتان ... وحبذا لو كان بين السطر والسطر سجعة أو سجعتان ، ليقع من ذلك فى الأذن ما يشبه الروى أو النغم ..

كلا ... ليس هذا إلا الشعر الجديد الكاذب .. لا الشعر الحقيقى ... إن الشعر الجديد يعجبنى شخصيًا أحيانًا نادرة وإنى أرى أصحابه مجددين حقًا حتى وإن حطموا كل القيود القديمة ... ذلك لأنهم شعراء ... شعراء بالهبة على الرغم من كل شيء ...

ولكنى أريد أن أحذر ... فإن مظهر السهولة التى يكتب بها أحيانًا تغرى كل إنسان أن يكون شاعرًا .. ولم أفطن إلى هذا الخطر

إلا يوم قال بعضهم بغير حيطة .. إن الغرض من هذه الطريقة الجديدة هو التحرر من قيود الوزن والقافية التى كان يفرضها الشعر القديم .. أى أنهم أرادوا اجتناب الصعوبة بإلغائها ... وإلغاء الصعوبات أمر مستحسن دائمًا إلا فى الفن ، لأن الفن صعب .. ويجب أن يكون صعبًا دائمًا ، حتى يكون فنًا ، لأن الفنان هو الإنسان الذى يواجه الصعب ، ويحوله إلى سهل .. تلك هى معجزته .. وعندما يقال : إن الفن سحر ، أو هو نوع من السحر ، وقد كان كذلك فى مطلع الأزمان ، وكان يقوم به السحرة والكهان ، كان تأثيره فى الناس منبعثًا من أنه شىء مُعجز لا يستطيعه كل شخص ، ولكنه يلين ويسهل فى يد الكاهن أو الساحر أو الفنان !...

أول شرط إذن هو أن يكون عسير المنال ، إلى أن يجىء الفنان فيخضعه لقدرته وموهبته ، ويُصَيِّرهُ سهلا بسيطًا سائغًا للناس ... إن الفن صخرة صلبة ، على الفنان أن يفجر منها الماء الزلال ... وليس الفن نهرًا جاريًا يغرف منه كل عابر سبيل بلا مجهود .. لابد فى الفن إذن من صعوبات وعوائق وقيود .. وشرط

الفنان أن ينتصر على الرغم منها ، لا أن ينتصر بإلغائها ... إن اللاعب الماهر هو الذى يفوز مع احترامه لشروط اللعب ، أما إذا بدأ بإلغاء الشروط أو بتخفيف وطأتها ففيم الفوز إذن ؟!...

أفهم أن يكون إلغاء الشروط أو القيود لأنها سخيفة ، لا لأنها عسيرة ، وفى هذه الحالة يجب أن توضع شروط جديدة للفن الجديد ، كأن يشترط فيه الموسيقى والصورة والقوة الدافقة الدافعة ، ولا حاجة بقافية بعد ذلك ... أما مجرد الإلغاء تيسيرًا للفنان فهو مبدأ خطر على وجود الفن ذاته ... حقيقة أن الفن الجديد هو الذى يبدو سهلا ، ولكنه كما يقال السهل الممتنع وليس السهل إطلاقًا .. هو السهل فى نظر الناس ، لا فى نظر الفنان .. هو الذى يكابد فيه الفنان ، ويعانى ، ويجاهد ، ليبلغه بعد ذلك للناس هينًا مستساغًا ، حتى ليخيل للناس جميعًا أنهم مستطيعون الإتيان بمثله دون مشقة ولا عناء ...

هذا هو السحر فى الفن .. هو الذى يخيل للناس أن الأمر فى متناول أيديهم ؛ وهو فى الحقيقة أبعد منالا من النجوم ... إن الفن العظيم هو هذا : هو السهل للناس ، والصعب للفنان ...

* * *

الصدق أساس التجديد عند الشباب

روع ذات يوم بعض أدباء الشباب وأطلقوا وصف «الإرهاب» على حركة نقدية قام بها شباب آخر من الأدباء غمروا الصحف والكتب فجأة بدراسات حشوها بكلمات مثل «الأدب للحياة»، و «الأدب الوردى» و «أدب البورجوازية»، والسلبية والإيجابية والشكل والمضمون والعضوى وغير العضوى.. إلخ».

إلى أن ظهرت فجأة أيضًا ترجمات لبعض النشرات والمجلات الأدبية، التى تصدر فى بعض الدول الأوروبية والآسيوية الشرقية، وإذا بالسر ينكشف، وإذا بأصل هذه الكلمات يتضح، فاطمأن الفريق الأول من الشباب وبدأ يمد رجليه ويتنفس الصعداء، واستخزى الفريق الثانى قليلا... وكادت تفتر المعركة...

والسبب فى اطمئنان الفريق الأول هو اعتقاده السابق أن تلك الأحكام الأدبية صدرت حقًا عن موازين طبيعية، لا شك فى

أصالتها ومنبعها الطبيعى فى أرضنا، فلما علم أخيرًا أنها موازين مستوردة، وأنها مثار جدل فى بلاد أخرى، بدأت تضعف فى نظره قيمة تلك الدراسات!...

كما أن السبب فى استخزاء الفريق الثانى راجع إلى أنه كان يخفى ـ بمهارة فائقة ـ مصدر موازينه ومصطلحاته، ليلقى فى الروع أنها من اجتهاده الشخصى، موهمًا أنها الموازين الطبيعية النهائية، التى يجب أن يقوم بها الأدب والفن اليوم فى بلادنا، بل والأمس أيضًا، بل كل أدب وفن ظهر على وجه البسيطة فى أى زمان ومكان، دون جدل أو مناقشة.. فلما تكشف الأمر، واتضح أن كل هذه المصطلحات والموازين قد ترجمت ونقلت عن آداب أخرى ، وتعبر عن شعوب ودول نبت فيها ذلك نبتًا طبيعيًا، شعر الفريق الناقد أن موقفه قد تحدد بما لا يرضى أطماعه، وأن الأدباء أخذوا ينظرون إليه على أنه مجرد مروج لمذهب لا أكثر ولا أقل!...

هذه على وجه التقريب هى النتيجة الختامية لمعركة أدبية شغلت أذهان الشباب فى الأعوام الأخيرة..

وإنه لمما يؤسف له أن تنتهى المعركة أو تفتر على هذا الوضع، فنحن فى حاجة إلى منشط فى مجال الآراء والأفكار الأدبية والفنية.

وإنى لأعتقد أن هذه المعركة كان من الممكن أن تنفع الأدب والفن نفعًا قويًا مستمرًا، لو أنها وضعت من البداية على أساس آخر...

ما هو هذا الأساس؟...

هو أولا الصدق... فما من بناء يبنى على الصدق إلا وكتب له البقاء، فى الأدب والفن، وفى كل شىء... كل حركاتنا الأدبية والفنية السابقة بنيت على الصدق، ولذلك عاشت، وكانت هى دعامة نهضتنا الفكرية الحقيقية.. ومعنى الصدق فى تلك الحركات أنها لم تكتم شيئًا، ولم توهم أحدًا.. بل قالت بكل بساطة: نحن فى حاجة إلى أفكار الغرب، لإضافة ما لم يوجد فى تراثنا وسننقل ما نحتاج إليه فى تجديدنا الأدبى والفنى.

وتم هذا النقل والترجمة فى وضح النهار، كما حدث فى كل أمة وعصر، وكل أدب غيرنا نما وازدهر ودخله هواء جديد.. لأن كل تجديد فى فكر ككل تجديد فى هواء غرفة، يحتاج إلى فتح النوافذ..

بهذا تفادت الحركات السابقة ذلك الاستخزاء والخجل ورد الفعل، الذى يحدث عادة عند اكتشاف حقيقة مخيفة مكتومة.. وما من ريب أن حركة هذا الفريق من الشباب كانت تدعو إلى الاحترام وكانت تتخذ مظهر الجدية والدوام لو أنهم قالوا بكل بساطة: «نحن فى حاجة إلى فتح النافذة الشرقية كما فتحت النافذة الغربية»... وقاموا بالفعل ينقلون نقلا أمينًا ويترجمون ترجمة دقيقة عيون الأدب والنقد من البلاد الشرقية، دون التواء أو تزييف أو إيهام..

ذلك أنه ما من عاقل ينكر هذه الحقيقة: وهى أن تجديد الحجرات والنهضات يحتاج إلى فتح النوافذ المغلقة فى كل الاتجاهات.. وقد حدث مثل هذا أيام النهضة الفكرية الإسلامية فى عصر المأمون يوم نشطت حركات النقل والترجمة، لآثار الفرس والهند واليونان والروم وغيرهم من مختلف الحضارات...

قد يقال إنهم ما كانوا يملكون هذا الصدق فى كل الأوقات.. هذا صحيح... ولذلك هم معذورون... ولكن...

ولكن العذر لا يعفيهم من مسئوليتهم عن النتيجة... نحن

نعذرهم.. ولكننا نعذر أيضا أولئك الذين استخفوا بهم بعد أن انكشف القناع...

هذا أولا كما ذكرت، ولكن هناك سببًا ثانيًا للأساس الخائر، ولعله الأسرع فى هدم الثقة، ذلك هو سوء التطبيق... إذا ما كاد هذا الفريق من الشباب يقع على بعض نماذج فى الأدب والفن والدراسات من تلك البلاد الشرقية وغيرها، حتى استخفه الزهو وانطلق — فى رعونة وعجلة — يؤلف وينقد، ويخرج فى الشعر والقصة والبحوث نتاجا سريعا أكثره مفتعل، يحاول أن يطبق فيه الأفكار المستوردة على مجتمع مختلف عن ذلك المجتمع الذى جاءت منه تلك الأفكار وعلى أدب لا يماثل فى تراثه وتاريخه ومراحل تطوره آداب تلك البلاد الأخرى...

كل ذلك أفقد تلك الحركة التى كان يصح أن تكون حركة تجديد بالفعل، بعض مظاهر الجدية.. وبدلا من أن تنتفع نهضتنا الفكرية والأدبية والفنية بمزايا النافذة الشرقية، كما انتفعت من قبل بمزايا النافذة الغربية، إذا بالأمر يكاد أن ينقلب إلى مهزلة وإذا بالثقة تنهار شيئًا فشيئًا، وإذا بابتسامات السخرية أو الارتياب تعلو

الشفاه قبل أن تمتد الأيدى إلى كثير من هذه المؤلفات التى تظهر اليوم، فى الشعر، أو القصة، أو النقد، لبعض هؤلاء الداعين إلى هذا النوع من التجديد من أدباء الشباب!...

إذن... لقد عمل هذا الفريق، من حيث لا يريد ولا يتوقع، الإضرار بحركته.. وليت الأمر يقف عند هذا الحد.. إذ لو أخذ الأمر على أنه سوء تطبيق لانحصر الضرر فى حدوده الضيقة، ولكن بعد انكشاف القناع أصبح هذا الفريق فى نظر المثقفين ممثلا أو مستوحيًا تلك الآداب الشرقية.. فما ذنب تلك الآداب ومعظمها من القمم والشوامخ، أن تُجرّ هى الأخرى فى غبار السخرية وعدم الثقة؟..

ما الذى ينقذ الموقف الآن؟...

أعتقد أنه ما من منقذ غير الشروع فى حركة تجديد حقيقية، تدعو إلى الاحترام، وتقوم على العمل المضنى غير المتعجل، وعلى الصبر الطويل والدرس العميق.. يجب أن ندرس مجتمعنا دراسة

جدية، وأن ندرس أدبنا وفننا دراسة دقيقة موضوعية، تحيط بمراحل تطوره المتصلة بتطور المجتمع، وأن يكون أدبنا الجديد والمتجدد نتيجة طبيعية للتطور الفكرى والاجتماعى، وأن يكون رائدنا فى كل ذلك الصدق والصراحة وسعة الأفق وحسن التطبيق!...

* * *

الشباب والشيطان

وقع ذلك الحديث الذى أرويه فى ليلة من ليالى الشتاء .. فى منتصف الليل .. فى تلك الساعة الرهيبة التى أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلل من الأمر .. وكنت جالسًا إلى مكتبى أقرأ تحت نور ضئيل ، وقد تكدست أمامى كتب يعلوها التراب ، وكان الكتاب المفتوح بين يدى قصة « فوست » ، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التى يجلس فيها العالم الشيخ ، بين كتبه فى إحدى الليالى ، وقد تهدل شعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم ، راغب عن الحياة التى لم تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن فى مقدورها أن تعطيه البشر ... وقد جلس يحصى على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التى عاشها .. ماذا صنع فيها ؟.. وماذا ربح ؟... إنه لم يعرف الشباب قط ، ولم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط ، ولم تدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام ، حتى فى

ذلك الزمن الجميل يوم كان خلانه يقولون : « الحب » ، وكان هو يقول : « المعرفة » !...

ولقد جدّ حقيقة فى سبيلها ، وأحاط بكل ما سمح لعقل إنسان أن يحيط به : لقد أعطى العلم كل حياته ؛ والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب ... الآن وهو فى طريق الأوبة إلى ذلك المكان المجهول الذى جاء منه — لو أن فى الإمكان أن نسميه مكانًا — ألا تراه عائدًا إليه بصفقة المغبون ؟!...

أما العلم فإنه الآن يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه ؛ إذ أضاع من أجله حياة كاملة ، فيها أشياء كثيرة غير العلم . إنه خارج من الحياة ولم يحمل زهرة ، ولم يستنشق عبيرًا من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره ووروده وغزلانه ... إنه لم يملأ قلبه بشىء ، وإنما قد ملأ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدود — كما قال « هاينى » — مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجمجمة الكبيرة !...

كل هذه الخواطر كانت تدور فى خلد العالم « فوست » وهو جالس أمام كتاب فى علم الفلك تحت نور ضئيل ، فى حجرة من

حجرات القرون الوسطى ، ولم يكن حوله غير كتب مكدسة يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف ، ولم يكن بالمكان أحد ..

ومع ذلك سرت فى جسم العالم المتهدم رعدة، إذ شعر أنه ليس وحده فى المكان ، فتردد قليلا ، ثم استدار بعينيه المنطفئتين يبحث فى أركان الحجرة ، فلم يجد أحدًا غير ظلال نور المصباح ، تتلاحق فوق الحائط القائم كالأشباح اللاعبة ، فتملكه خوف لم يدر سببه .. ووضع وجهه فى كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر ، وإذا صوت هامس يلقى فى أذنه :

ـــ « فوست » ! « فوست » ! لقد سمعت ما دار فى نفسك !

فجمد الدم فى عروق الشيخ ، واستطرد الصوت :

ـــ لا تخف !.. ألا تعرف من أنا ؟..

لم يحر العالم جوابا ، ولم يجرؤ على الحركة ، وظل فى جلسته كتمثال من الشمع !...

فاستأنف الصوت :

ـــ أنا الذى يستطيع أن يمنحك ما تطلب !...

هنا دبت القوة فى نفس الشيخ ، وزال عنه الخوف والتفت إلى مكان الصوت فأبصر وجهًا غريب السحنة ، لا يشبه وجوه البشر ، يبتسم له ابتسامة عجيبة . ولم يجد لهذا الوجه جسمًا ، فقد كان محوطا بالظلام . وتمالك الشيخ وتحامل ، ثم قال فى صوت واجف :

ـــ من أنت ...

فنظر إليه الوجه نظرة ثانية وأجاب :

ـــ وهل يعنيك كثيرًا أن تعرف من أنا ؟...

ـــ من أنت ؟...

ـــ دائمًا تريد أن تعرف ... دائمًا حب المعرفة !... أيها الأحمق الفانى !... أما يكفيك أنى أعطيك ما تطلب ؟...

كل ما تطلب ..

ـــ من أنت ؟..

ـــ الشيطان !

دهش العالم ونظر إلى الوجه من جديد ، فألفاه يبتسم تلك

الابتسامة التى لا تتغير ، فردد فى بطء ، وهمس كأنما يخاطب نفسه :

— الشيطان !!...

ودنا الوجه قليلا من الشيخ ، وقال فى نبرة لطيفة :

— أتخافنى ؟.. لا تخف ... انتظر ...

وفى الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمى تأتى طائرة طائعة من أنحاء الحجرة المختلفة ، وتلتصق بالوجه حتى صار إنسانًا ، وتغير الوجه فصار كوجوه البشر ، ومد ذلك الإنسان يده إلى كرسى بجانب الشيخ ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه :

— « هأنذا إنسان مثلك، ينبغى أن أكون إنسانًا مثلك حتى تفهمنى ، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا مَن كان على صورتك !... إنى فى خدمتك !... »

هدأ روع العالم قليلا ، وتذكر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه وتبرم بحياته ؛ فاهتز فى مقعده وصاح :

— أيها الشيطان !... أعطنى ... أعطنى ...

ـــ اطلب ما شئت !...

ـــ الشباب !...

لفظها الشيخ الفانى من أعماق قلبه المتداعى ...

فأجاب الشيطان فى تؤدة :

ـــ لك ما طلبت .. ولكن ماذا تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟..
إن الشيطان لا يعطى لوجه الله !...

فقال الشيخ من فوره :

ـــ أعطيك العلم .. كل ذلك العلم الذى اكتنزته مدى ثمانين
عامًا ؟!..

فقهقه الشيطان :

ـــ لا حاجة بى إلى هذه البضاعة ... علمك لا ينفعنى !.. إنى
أريد منك شيئًا آخر !...

ـــ ماذا ؟...

ـــ نفسك !...

فلم يتردد الشيخ :

ـــ هى لك ..

عندئذ أسرع الشيطان ومد يده فى الهواء ، والتقط قرطاسا نشره تحت المصباح ، وتناول ذراع الشيخ ، ففزع الشيخ :

ــ ماذا تصنع ؟...

ــ لا تفزع من شيء !... أريد قليلا من دمك تكتب لى به صكًا على هذا القرطاس !... هو عهد بينى وبينك : « أعطيك الشباب ، وتعطينى نفسك !... » .

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه ، وتناول الشيطان العهد المكتوب ، ورفع يده فى الهواء ، وعاد فوضعها على جسم الشيخ ، فإذا شيخوخته تزول عنه ؛ كما تزول الأوراق الذابلة عن الشجرة الفتية ، وإذا العالم الهرم قد انقلب فتى فى العشرين ، جميل الطلعة بسام المحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب للحب !...

* * *

لم أكد أنتهى إلى هذا الموقف من قصة « فوست » حتى طرحت الكتاب وهمت فى وادى التأملات !... كان الذى يملك علىَّ لبى ذلك الوقت ؛ هو حب « المعرفة » ... كانت كل

أحلامى أن أفتح كل صباح نافذة تطل على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح فى بحار الأسرار ... كان من يكشف لعينى المستطلعة جديدًا هو الخليق عندى أن أعطيه ما شاء من نفسى ... فى تلك الليلة صحت فى الحجرة :

ــ أيها الشيطان !.. أيها الشيطان !.. ابرز إلىَّ ، وخذ منى ما تشاء ، وأعطنى ما أريد !...

ولم يبرز إلىّ بالطبع أحد ، ولم تنشق الجدران ، ولم تكن الصيحة التى لفظتها إلا صوتًا مدويًا داخل نفسى ، وهو فى الحقيقة همسة لم يبلغ صداها باب الحجرة ؛ على أننى لم ألبث أن رحت فى شبه إغفاءة ، نصب فيها الخيال مسرحًا ، وإذا الشيطان فى ملابس « مفستو » الحمراء ويده على مقبض سيفه ، والابتسامة الخبيثة الساخرة على شفتيه ، وهو ينظر إلىَّ قائلا :

ــ أناديتنى ؟..

فهمست :

ــ نعم !...

ــ ماذا تريد منى ؟...

— المعرفة !...

فضحك ضحكة عالية طويلة ، اهتزت لها الريشة القائمة على قرنه ، وقال :

— هل تدرك مدى هذه الكلمة ؟...

ففطنت إلى مراده وصحت مستدركًا :

— نعم !.. نعم!... أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علمًا بمدى هذه الكلمة .. إنى ما أردت منك المستحيل ، وما قصدت أن تعطينى « المعرفة » ذاتها .. إنما أردت أن تمنحنى « حب المعرفة » .. أريد أن تمنحنى تلك النفس التى تعيش للمعرفة .. أريد أن تعطينى ما أخذت من « فوست » ... أعطنى « نفس فوست » التى أخذتها منه ... أريد أن تكون لى نفس « فوست » أو نفس « جوته » !..

— وماذا تعطينى أنت فى مقابل هذا ؟...

— كل ما تطلب ...

— الشباب !...

— هو لك !..

قلتها فى غير تردد ، فنظر إلى « مفستو » نظرة طويلة .. نظرة العجب أو الإشفاق — لو أن الشيطان يشفق أحيانًا — أو نظرة التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غر قاصر .. وقال :

— سوف تندم !..

— أبدًا !...

— أفهم أن يبذل كل غال فى سبيل « الشباب » أما أن « الشباب » هو الذى يبذل .. اسمع نصحى أيها الفتى .. إنى لم أعتد إخلاص النصح لأحد ... ولكنى أقول لك :

لا شىء فى الوجود يعوض الشباب !...

— المعرفة ... المعرفة ... المعرفة !...

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة ، وقال كالمخاطب لنفسه :

— كان « فوست » يقول هذا فى صباه !...

فقلت فى تحمس أعمى :

— حب المعرفة هو شباب العقل .. هو الشباب الأبدى .. هو السمو الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا أنت أيها المتطاول

على عرش فكرنا النورانى !...

— عرش فكركم النورانى ؟!... ماذا أقول لهذا الفتى ؟..

— إنى أعرفك وأبغضك ... إنك هنا على هذه الأرض لا عمل لك إلا أن تطفئ هذه المصابيح العظيمة التى تزين هاماتنا ، إن فى يدك عصا طويلة كتلك التى كان يحملها « عفاريت الليل » يطفئون بها فى مطلع الفجر مصابيح الغاز فى الطرقات !..

— ما أسخف مصابيح الغاز !...

— نعم ، ولقد ذهب عهدها بظهور الكهرباء ، واختفت معها « عفاريت الليل » بعصيها .. أنت أيضًا قد آن لك اليوم أن تختفى بسيفك وريشتك ، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع « مصباحه » من أجل شيء ...

— لقد باع « فوست » مصباحه من أجل فتاة !..

— كان ذلك مصباحًا من الغاز ...

— من الغاز أو الكهرباء ، النور هو دائمًا النور !...

— يا عدو النور !... أعطنى النور وخذ منى ما تشاء ...

فقال الشيطان :

— O.K.

وخلع قلنسوته ومسح بها الأرض بين يدى إغراقًا فى التحية ، على طريقة فرسان « إسكندر دوماس » ، وتحرك للانصراف ، فاستوقفته :

— ألا نكتب عقدًا ؟..

— لا ضرورة منك للعقود والعهود .. إنى واثق بشرفك !..

— ولكنى أنا .. معذرة .. إنى لا أثق بشرفك ...

— جربنى هذه المرة ..

وانحنى لى انحناءة كبيرة ثم اختفى !...

* * *

مضى على تلك الليلة عشرات الأعوام التهمت فيها الكتب التهامًا ، وأحطت بمختلف العلوم والفنون علمًا ، وعشت مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين ، وأحببت فيها « المعرفة » حبًا كالجنون .. فلم أكن أطيق صبرًا على الجهل بفرع من فروعها ، وكنت أحيانًا لا أملك من النقود غير الضرورى لآكل بقية الشهر وأصادف فى واجهة الحانوت كتابًا أو كتابين ،

فما أحجم ، وأدفع فيهما ما معى ، وأتبلغ طول أيامى بمرق الأرز ونقيع الشاى ... وذهب بى الجنون إلى حد الرغبة فى الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب عليه ، فنظرت فى كتب الفلك ، والعلوم الروحانية ، والرياضيات العليا ...

وكانت أيام راحتى تنفق فى هياكل الفن ومتاحف التاريخ الطبيعى ودور الكتب والآثار ...

وكانت لى جلسات طويلة فى ركن قهوة صغيرة منفردة آوى إليها وحيدًا أفكر ست أو سبع ساعات متوالية فى مسائل عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة ، أو قضايا الفكر ، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكم هدمت فى رأسى مدنيات وأقمت بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية ، على نحو ما فعل « أفلاطون » و « توماس مور » ولكم ألحدت ثم آمنت ، وضللت ثم اهتديت ، ولكم كتبت ومزقت ، ولكم جهدت فى سبيل تلك اللذة العليا التى حسبتها غاية الإنسان التى ليست بعدها غاية ، ولقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرقّ ، وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش .. ولقد

صرت كالهواء ، أو كالملائكة ، أسهر سابحًا فى أجواء الفكر ، فوق كتاب مفتوح ، تحت مصباح مضىء ، حتى إذا جاء الصباح رقدت وهربت من الناس والضجيج ... إلى أن نبهتنى آخر الأمر خادم عجوز قائلة :

ـــ حياتك هذه ليست حياة ... انظر إلى وجهك فى المرآة !...

فنظرت مليًا فى مرآة خزانة الملابس فارتعت :

ما كل هذه التجاعيد حول عينى ؟... وما هذا الظهر الذى تقوس وانحنى ؟... وما هذا النحول والشحوب ؟.. أترانى قد نسيت جسمى طول هذه الأعوام ؟.. أم تراه الشيطان قد تقاضانى الثمن دون أن أعلم ؟... وهالنى منظرى وأنا أضع أصبعى على تلك الخطوط المخيفة على صفحة وجهى ؛ كأنها صك بزوال زهرة الحياة إلى الأبد ، فما تمالكت أن صحت :

ـــ الشباب !... الشباب !... لقد أخذ الشباب !...

* * *

البعث على يد الشباب

إن الشباب الخلاق هو الذى يبعث ماضيه حيًا .. ويمد أسلافه بدم جديد يصلح لإحيائهم فى زمن جديد ... هكذا ترمز تلك الفقرات من كتاب الموتى عند المصريين القدماء » :

حوريس : انهض ، انهض يا أوزوريس !

أنا ولدك حوريس ...

جئت أعيد إليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك ،وأربط عضلاتك ،

وأصل أعضاءك ...

أنا حوريس الذى تكون أباه ...

حوريس يعطيك عيونا لترى

وآذانا لتسمع وأقداما لتسير

وسواعد لتعمل ...

ها هى ذى أعضاؤك صحيحة

وجسدك ينمو ...

ودماؤك تدب فى عروقك ...

إن لك دائمًا قلبك الحقيقى ،

قلبك الماضى !

أوزوريس الميت : إنى حى ، إنى حى !...

« كتاب الموتى »

و « حوريس » ليس إلا «الشباب » ، يعيد الحياة إلى ماضيه الميت ... نعم هو « الشباب » الذى يكون أباه الوطن ... وقد أعطاه بالفعل عيونًا يرى بها غابره العظيم فى حريته ، وحاضره الذليل فى قيود الغرباء ، وآذانا يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته ؛ كما أعطاه أقدامًا يسير بها كى يثبت لهم أنه حى ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم !... إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو ؛ وها هو ذا جسده يتحرك وينمو ، والدم يجرى فى شرايينه ، والشباب على رأسه يصيح :

« إن لك دائمًا قلبك الحقيقى ... قلبك الماضى !... » ويخيل إلىَّ : أنى أسمع الوطن من كل جانب يلبى النداء ويجيب الشباب الأبناء : « إنى حى ، إنى حى !... » إنى دائمًا أومن بأن مصر لا يمكن أن تموت ؛ لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحد : مكافحة الموت .. ولقد فازت مصر ببغيتها ، وكلما ظن الموت أنه انتصر ، قام « حوريس » من أبنائها يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن !... إن لك قلبك ... قلبك الحقيقى دائمًا ... قلبك الماضى ... » وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدو من أعماق الوطن :

« إنى حى ... إنى حى !... »

* * *

قضية القرن الحادى والعشرين

زارنى منذ عهد ليس بالبعيد صحفى أمريكى قال إنه يطوف ببلاد كثيرة يتحرى عن سبب كراهية العالم لأمريكا .. وتأملته مليًا وهو يخرج من جيبه دفترًا صغيرًا ليدون فيه إجابتى ... كان شابًا دون الأربعين طويل القامة عريض المنكبين ، كأبطال السينما الأمريكية ... وكنت أظن أن مثل هؤلاء الرجال لا يوجدون إلا فى هذه الأيام ... ولكنى ها أنذا أراهم بلحمهم وشحمهم بين رجال الصحافة ... رجال ينبتون فى أرض جديدة ، كما تنبت عندنا سيقان الأذرة الفارعة « زرع بدرى » فى الأرض الخصيبة ... لم أجعله ينتظر كثيرًا حتى أفكر ، فالإجابة لم تكن محتاجة إلى تفكير ، وحرب فيتنام ببشاعتها ماثلة للأذهان .. قلت له على الفور إن العالم يكره أمريكا لأنه يراها المسئولة اليوم عن إشعال الحروب ... حيث ذهبت فى آسيا وإفريقيا ، فى الشرق

الأقصى والشرق الأوسط تجد علبة الثقاب فى أصابع أمريكا تلعب بها أو تحل بها مشكلاتها تاركة الدخان يلبد سماء السلام ...

فدوّن فى دفتره ذلك ثم رفع رأسه قائلا لى :

— هل تعتقد أن فى إمكان أمريكا حل مشكلاتها بغير هذه الحروب ؟

قلت له باقتناع واضح :

— هذه رسالتها ...

وأدهشته مثالية الكلمة ووقعت من نفسه موقعًا حسنًا .. فدونها بسرعة .. ثم التفت إلىّ يقول :

— هذا شىء رائع ... ولكن ... من الناحية العملية ...

قلت له :

— إنى أتكلم من الناحية العملية ... إن رسالة السلام فى يد الدولة القوية هى خير حل عملى لكل المشكلات ، وإذا أرادت دولة قوية أن تكون محبوبة وأن تسيطر حقًا على قلوب العالم فلتترك علبة الثقاب وتطلق حمامة السلام ... هذه الحمامة ذات الجناحين جناح اسمه العدل وجناح اسمه الحرية ...

ـــ شكرًا !...

قالها وهو يطوى دفتره ويضعه فى جيبه وينهض مودعًا ... وانصرف ... وخلت الأمر انتهى عند هذا الحد .. ومضى يومان وفى اليوم الثالث عاد ليقول إنه جعل يفكر طويلا فى رسالة الدولة القوية الكبيرة فى عصرنا الحاضر ومسئوليتها أمام البشرية .. وإنه يريد أن يأخذ الموضوع مأخذ الجد ، ويطلب مساعدتى فى ذلك ... فقلت له :

ـــ مساعدتك ؟! فى ماذا ؟...

ـــ فى تحقيق هذه الرسالة ...

ولما رأى دهشتى سارع يقول :

ـــ طبعًا الموضوع ليس بهذه السهولة ... ودولة كبيرة مثل أمريكا ليست شخصًا واحدًا يمكن التفاهم معه ... إنها تركيب متناقض ومعقد غاية التعقيد ... هل زرت أمريكا ؟

قلت له :

ـــ لا ... ولا أريد ...

ـــ بل يجب أن تريد .. وخاصة الآن ... اسمع .. ما قولك لو

اصطحبتك إلى هناك ؟... هذا لن يكلفك شيئًا .. سأكون أنا المتكفل بك فى الذهاب والإياب ... من الباب للباب ... ولا تتعلل بشيخوختك وصحتك كما قيل لى فسأوفر لك كل أسباب الراحة ... ولى قريب هو أحد مستشارى الرئيس الأمريكى .. وفى إمكانه أن يدبر لك زيارة للبيت الأبيض لتناقش بنفسك الرئيس فى هذا الموضوع الهام ...

ــ ابعد عنى !... أرجوك !...

قلتها بلطف وابتسام ولكن فى غمرة حاسمة ... فلم ييأس وأصر وقال محاولا إقناعى :

ــ هذه رسالتك أيضًا ... أنت الذى تتحدث عن الرسالات ... إنها ليست زيارة للسياحة ولا للنزهة ... العالم القلق اليوم فى حاجة إلى مفكرين مؤمنين ... فإذا كنت مؤمنًا حقًا برسالة ما فابذل من أجلها بعض الجهد والفرصة مواتية ... هيا أعطنى جواز سفرك وأنا أعد لك كل شىء وأحجز لك معى مكانًا فى الطائرة ...

فلم أتمالك من الضحك :

— بهذه السرعة ؟! هل أنا حقيبة تحمل هكذا ؟!

— ولماذا الإبطاء ؟

— أتخشى على العالم المريض أن يموت قبل وصولنا ؟! ثم من أكون أنا فى هذا كله؟!.... من يسمعك يظن أنى طبيب يطير بالدواء !...

— كل شخص مؤمن بفكرة صالحة هو طبيب إلى حد ما ... هيا بنا لا تضيع الوقت إنك لن تخسر شيئًا بهذه الرحلة .. وقد تستطيع عينك الجديدة أن تبصر فى لمحة واحدة كل مستقبل مجتمعنا ...

أطرقت قليلا أفكر ثم قلت :

— لن أستطيع المكث هناك أكثر من أسبوع واحد ..

— وهذا يكفى ...

— ولا داعى لزيارة البيت الأبيض .. أنا لا أقابل الحكام ..

— لك ما تريد ...

وبسرعة وجدت نفسى مدفوعًا دفعًا إلى هذه الرحلة .. وجهز كل شىء وتم فى طرفة عين ... وما شعرت إلا وأنا فى المطار ... ثم

وأنا فى الجو ... والصحفى اللعين إلى جوارى يبتسم وأنا غير مصدق لما أنا فيه .. كيف حدث كل ذلك هكذا؟! ومرت المضيفة ببعض الحلوى فاعتذرت ... وهنا تذكرت أن السكريات وبعض أطعمة الطائرات لن تناسب صحتى ... ولكن فات الأوان ولن يجدى التفكير فى ذلك . ومد صاحبى الصحفى يده إلى قطعة حلوى وهو يسدد نظرة متأملة إلى وجه المضيفة الحسناء ويقول :

ـــ عيناها جميلتان !...

ولم ألتفت إليه ... وتظاهرت بالنوم ... فقد ساء مزاجى فجأة وغمرتنى كآبة لانتزاعى بهذه الطريقة من بلدى وبيتى وعاداتى لأجد نفسى فى رحلة مجنونة إلى هدف غير واضح المعالم .. كيف استطاع إقناعى ؟! ليست هذه أول مرة أدعى فيها لزيارة بلاده وغيرها من البلاد .. كنت أكسل ولا أتحمس .. فما الذى حدث هذه المرة ؟! أترانى وقعت فى شرك كلمة قلتها : رسالتنا ؟! الآن أنا وحدى أحادث نفسى ولا أحد يسمع صوتى الداخلى : هل كنت جادًا وأنا ألفظ هذه الكلمات الكبيرة ؟!...

بالطبع أنا جاد ولكن ... ليس إلى الحد الذى أتجشم من أجله المتاعب !... فى مثل سنى ... يا للخجل !.. الحمد لله أن أحدًا لا يسمعنى ... ومع ذلك أعاتب نفسى وقد قمت بالفعل ألبى النداء .. لكن أى نداء ؟! ومن أدرانى أنها ليست أكثر من زيارة صحفية كأى زيارة صحفية أخرى مما يدعى إليها الصحفيون والكتاب ؟.. ولعل هذا الصحفى الشاب سبق أن دعا غيرى بمثل هذه الأساليب ؟! كل بالأسلوب الذى يناسبه ويغريه ؟! إذا كان الأمر كذلك وقد وقع الفأس فى الرأس فلن أكتب حرفًا عن هذه الزيارة ولا عن هذه البلاد ... صحفى شاب يضحك من كاتب فى السبعين ويجرجره معه من طائرة إلى طائرة !...

وعندما وصلت فى تفكيرى الداخلى إلى هذا الحد بدت لى الرحلة جحيمًا والصحفى الجالس بجوارى شيطانًا .. فلم أطق النظر إليه وزاد همى وغمى وتمنيت لو عدت أدراجى ودخلت بيتى وارتميت على فراشى المريح .. ولكن الطائرة فى الجو ولم يبق لى غير الندم والترنم بالمثل : « الحق على من يسمع كلام العيال » ..

* * *

لبثت طوال الرحلة قليل الكلام مع الصحفى .. وكلما لمحت منه رغبة فى الحديث تظاهرت بالنوم . فكان هو يلجأ إلى القراءة أحيانًا ويغازل المضيفات أحيانًا أخرى .. إلى أن اقتربت الرحلة من نهايتها فهتف بى قائلا :

ــ نحن الآن نطير فوق تمثال الحرية .. فنهضت فى الحال أشرئب بعنقى لأنظر من النافذة ... ولكن الوقت كان ليلا فلم أبصر شيئًا ... ورجعت بذاكرتى إلى ما قرأته عن هذا التمثال الضخم .. لقد كان هدية من فرنسا إلى الولايات المتحدة .. صنعه المثال الفرنسى « بارتولدى » وأسماه « الحرية تضىء العالم » .. ووضعته الولايات المتحدة فى ميناء نيويورك عام ١٨٨٦ ... نعم لا شك أن حسن الظن بأمريكا فى ذلك التاريخ كان كبيرًا .. وكان العالم يتوقع لها أن تضىء الحرية منها على العالم حقًا !.. وهبطت الطائرة أخيرًا واستقرت على أرض المطار .. ثم لم يمض قليل حتى كنت فى الفندق الذى اختاره الصحفى لنزولى بمدينة نيويورك .. كنت متعبًا فآثرت المضى إلى حجرتى توًا وطلبت فيها عشاء خفيفًا وآويت إلى فراشى ... ونهضت مبكرًا

فى الصباح وطلبت فنجانًا من الشاى وارتديت ثيابى ونزلت إلى بهو الفندق أنتظر صاحبى الصحفى لنضع برنامج الزيارة ونبدأ يومنا الأول .. وإذا نظرى يقع على صحف الصباح فى أيدى بعض النزلاء وبها مانشيت كبير : « تمثال الحرية » !. وخيل إلىّ من تهامس وحديث من حولى أنى أسمع كلمة « اختفاء أو خطف » أو ما يشبه ذلك .. فقلت فى نفسى هذا مستحيل ؛ فتمثال الحرية ليس إبرة حتى يختفى ، وليس لعبة حتى تخطف ، لابد فى الأمر خطأ .. ففهمى للإنجليزية ولا سيما فى أمريكا مما يحتمل معه سوء التفسير .. ولم يلبث صاحبنا الصحفى أن ظهر وفى يده إحدى صحف الصباح وهو منهمك فى القراءة .. فما أن أبصرنى حتى أقبل علىّ وحيانى وبادرنى بقوله وهو يشير إلى الصحيفة : تصور .. تمثال الحرية ...

— ماذا ؟... اختفى ؟!...

قلتها بلهجة أدهشته ... ولكنه استطرد يقول :

— يظهر أنها قضية الموسم !... لقد تغيبت عن أمريكا فى تجوالى حول العالم نحو ثلاثة شهور لأعود فأجد هذه القضية

الغريبة !...

— قل لى فى كلمتين ما هو الموضوع ؟؟...

— خذ اقرأ بنفسك !

فتناولت الجريدة من يده وتصفحت العناوين لأعرف بسرعة ما هى الحكاية ؟ كان بالصفحة أربع صور فتوغرافية كبيرة لرجلين وامرأتين فى سن الثلاثين ، أو أقل قليلا .. تحيط بهم صورة كبيرة لتمثال الحرية ... ثم عنوان ببنط كبير : « مساجلة عنيفة بين المدعى العام وهيئة الدفاع حول وصف الجريمة » .. ثم عنوان آخر : « اليوم تصدر المحكمة قرارها بتحديد التهمة » .. ثم عنوان أخير : « هل المتهمون مجرمون أو مصلحون ؟ » ... ولم أستمر فى القراءة فقد شعرت بشىء يجذبنى إلى هذه القضية ... فقلت لصاحبى على الفور :

— هل نستطيع أن نشاهد هذه المحاكمة ؟

— إذا أردت ... وما دمتُ معك فكل شىء سهل ...

— هيا بنا إذن !...

* * *

وانطلقنا إلى دار المحكمة ... ولم يكن صاحبى الصحفى فى حاجة إلى إظهار بطاقة شخصية فقد كان معروفا هناك ... وسرعان ما فتحت لنا الأبواب ... ووجدنا أنفسنا داخل قاعة الجلسة .. لم يكن القاضى قد ظهر ، فمقعده لم يزل خاليا .. ولكن المحلفين كانوا فى أماكنهم .. وكذلك الجمهور فى مقاعده .. وقد أجلسونا فى صف من صفوفه ... ونظرت إلى مكان المتهمين فوجدت الأربعة الذين طالعت صورهم فى الصحف ، يتحدث إليهم رجلان أدركت أنهما من هيئة الدفاع .. ولم تمض لحظة حتى دخل القاضى إلى القاعة واتخذ مقعده بجوار العلم الأمريكى وافتتح الجلسة بتلخيص وجيز لما حدث فى الجلسة السابقة من خلاف حول وصف التهمة وما ينتظر لهذا الخلاف من استمرار .. وهو يقترح توفيرًا للوقت أن تشرع المحكمة فى سماع الشهود وعرض وقائع الدعوى وتقديم أدلة الإثبات والنفى ، ومن بلورة كل ذلك يمكن فى النهاية تحديد التهمة .. وهنا نهض أحد المحامين يقول :

— فى هذه الحالة يكون المتهمون محتجزين فى غير تهمة ..

ولذلك أطالب بالإفراج عنهم فورًا إلى حين بلورة وقائع الأدلة واستخراج التهمة منها وتحديد وصفها ..

فقام المدعى العام يقول :

— أرفض الإفراج عنهم ... لأنهم ضبطوا متلبسين ..

فقال المحامى :

— متلبسين بماذا ؟

— بالتخريب ...

— هل هناك دليل على أن نية التخريب قامت فى أذهانهم ؟

— وما الذى قام فى أذهانهم ؟

— نقل التمثال من مكانه .. كما جاء فى أقوالهم ..

— إذن هى سرقة ...

— لا يمكن تطبيق وصف السرقة لأن نية الامتلاك غير قائمة ..

— وما هو المكان الذى أرادوا نقل التمثال إليه ؟

— مكان يلائم معناه ... معنى التمثال هو الحرية تضىء العالم .. وهم يريدون نقله إلى مكان تضىء فيه الحرية ..

وهنا تدخل القاضى قائلا :

ــ بهذه الطريقة سنظل فى مساجلات لن تنتهى .. وأنا مضطر إلى حسم الخلاف واعتبار التهمة جريمة تخريب لممتلكات الدولة .. وعلى الدفاع أن يثبت وجهة نظره المخالفة ... هذا قرارى ... ولنبدأ الآن فى سماع شهود الإثبات ...

وابتسم المدعى العام ابتسامة الفوز .. وقام المحامى يقول للقاضى :

ــ إذا سمحتم بتأجيل الجلسة بضع ساعات .. لأن هذا القرار جاء مفاجئًا لنا ...

فوافق القاضى على رفع الجلسة على أن تعقد بعد الظهر ... ونهض منصرفًا وانفض الجمهور .. وخرجنا ، أنا والصحفى نتناول طعام الغداء فى مطعم بجوار دار المحكمة ، بعد أن علم أنى أنوى العودة إلى الجلسة لمتابعة القضية ... فاهتمامى بها أمر طبيعى .. وقد أدرك هو كما أدركت أن وراء هذه القضية قضية أخرى أكبر وأعمق .. وفرغنا من شرب القهوة ونظرنا فى الساعة ثم نهضنا عائدين إلى المحكمة ، واتخذنا مقاعدنا ، وعادت الجلسة

إلى الانعقاد .. وأمر القاضى بإحضار الشاهد الأول .. فجاء رجل يمشى بخطوات عسكرية .. هو أحد حراس مبنى التمثال .. حلف اليمين ثم جلس فى مقعد الشهادة .. وسأله القاضى عن معلوماته فقال :

— ليلة الحادث كانت نوبتى فى الحراسة .. فى نحو الثالثة بعد منتصف الليل سمعت فى الماء صوت محرك زورق بخارى .. فسددت منظارى المقرب فرأيت فى الزورق رجلا فى ثوب الاستحمام .. ولكن بعد لحظة ظهر من الماء رجل آخر فى ثوب الغطس ثم تبعته سيدتان فى ثياب الغطس أيضًا وهم يمسكون بحبل طويل .. وصعد الجميع إلى الزورق .. فخامرنى شك فى الأمر وصحت بهم .. وأطلقت عيارًا فى الهواء من مسدسى لأمنع فرارهم .. وجاء زملائى وفتشنا الزورق فوجدنا به آلة نسف .. ثم جئنا بالغطاسين لنتتبع طرف الحبل الطويل فعثرنا على أصابع الديناميت معلقة بأسفل الصخرة التى يقوم عليها مبنى التمثال ..

وهنا طلب إليه القاضى أن يدله على المتهمين فأشار إليهم .. ثم أراه المضبوطات من أصابع الديناميت والحبال وآلة النسف

فتعرف عليها .. وترك القاضى الشاهد للمدعى العام كى يستجوبه فسأله :

ـــ ما هو الغرض الذى فهمته من عمل المتهمين ؟

ـــ نسف التمثال طبعًا..

ـــ وما الذى فهمته من إدراة محرك الزورق ؟

ـــ إن المتهمين كانوا يستعدون للفرار بالزورق بمجرد أن يتم وجودهم فيه والضغط على زر النسف ...

ـــ كان من الممكن إذن أن تتم الكارثة إن لم تسمع أنت صوت المحرك ؟

ـــ بالتأكيد ..

ـــ شكرًا ..

والتفت المدعى العام نحو المحلفين وقال :

ـــ واضح كما ترون أن المتهمين كانوا يقصدون نسف التمثال وقد نفذوا خطتهم فعلا .. وكاد يتم لهم ما دبروه .. فلا سبيل غير ذلك .. وترك مكانه لهيئة الدفاع تستجوب بدورها .. فقام أحد المحامين يسأله :

— فى أى مكان بالضبط علق المتهمون أصابع الديناميت ؟

— فى أسفل الصخرة .. تحت الماء ..

— هذا القدر من الديناميت يكفى لإحداث ضرر فى أسفل الصخرة تحت الماء .. ولكن هل هو يكفى لتخريب التمثال نفسه وطوله فوق الماء ٩٣ مترًا ؟

— لا أدرى .. لست خبيرًا ..

— مبنى التمثال والصعود داخله ممكن للزوار .. ألم يكن من الممكن للمتهمين ترك المتفجرات أو إخفاء قنبلة زمنية داخله ؟

— توجد حراسة مشددة ...

— وهل هذا يمنع المحاولة لمن يريد ؟

— لا يمنع بالطبع ..

— إذن هو ممكن لو أرادوا ؟...

— نعم ..

— لماذا أطلقت الرصاص فى الهواء؟...

— لأمنعهم من الفرار ..

— هل ظهر منهم ما يدل على رغبتهم فى الفرار أو أنك أنت

توهمت ذلك ؟..

— صوت المحرك الدائر دلنى على أن زورقهم على وشك الانطلاق ...

— هل سمعت صوت المحرك عند اقتراب الزورق من مبنى التمثال عندما جاءوا ؟..

— لا .. لأنى كنت فى مكان بعيد ..

— هل أنت متأكد من أن المحرك كان ساكنًا وأنه أدير استعدادًا للانطلاق ؟..

— أنا سمعت صوته يدور فقط ..

— أليس من الجائز أنه كان دائرًا طول الوقت ؟...

— جائز ..

— لماذا حكمت إذن أنهم كانوا يريدون الفرار ؟..

— من باب ارحتياط ...

— من جانبك أنت .. لكن من جانبهم هم هل صدرت منهم حركة تدل على رغبتهم فى الهرب ؟...

— لا ...

ــ شكرًا ...

ــ وهنا قال المدعى العام فى لهجة أقرب إلى السخرية الخفيفة المغطاة :

ــ ما الذى يريد الدفاع أن يصل إليه ؟...

فرد المحامى قائلا :

ــ أريد أن أنفى عن موكلينا نية الفرار .. لأنهم لم يرتكبوا شيئًا يدخل فى باب الجريمة .. ولم يقطع الشاهد بأن الديناميت الموضوع أسفل الصخرة كان كافيًا لتخريب التمثال .. وأنه ..

فقاطعه المدعى بقوله :

ــ هذه مسائل من اختصاص الخبير .. وهو موجود الآن فى المحكمة ، وأرجو من سيدى القاضى أن يأمر باستدعائه ...

أمر القاضى باستدعاء الخبير .. فحضر وحلف اليمين وجلس فى كرسى الشهادة .. وعرضت عليه أدوات التدمير ففحصها وسأله المدعى العام :

ــ هل عاينت المكان الذى وضع فيه الديناميت ؟

فأجاب :

— نعم .. وهو على عمق عشرة أمتار من سطح البحر ...

— ما مدى الخسائر التى كان يمكن أن يحدثها هذا الديناميت فى مبنى التمثال ؟

— لا يمكن تقدير مدى التلف بالضبط .. ولكن الانفجار كان ولا شك سيحدث اهتزازًا خطيرًا فى المبنى ..

— أليس من المحتمل أن يؤدى الاهتزاز الخطير إلى سقوط التمثال ؟

— كل شىء فى هذه الحالة محتمل ..

— ما الذى تستنتجه من هدف هذا الفعل ؟

— التخريب طبعًا ..

— ألا يمكن أن يكون لهذا الفعل هدف آخر ؛ كنقل التمثال من مكان إلى مكان مثلا ؟

— نقله من مكان إلى مكان ؟!.. تمثال بهذه الضخامة ؟! وبهذه الوسائل الصبيانية ؟!... إنها نكتة مضحكة !...

— إذن لا يمكن أن يخطر على بال أحد جدية هذا الافتراض ، وخاصة ممن هم على قدر كبير من التعليم والثقافة شأن هؤلاء

المتهمين الذين تخرجوا فى جامعة هارفارد بأعلى الدرجات ؟!..

ـ أعتقد أن التفكير فى ذلك على هذا النحو لا يمكن أن يكون جديًا .. لأن مشروع نقل هذا التمثال من مكانه هو عملية فنية معقدة لا يستطيع تنفيذها إلا الشركات الهندسية الكبرى ..

واستدار المدعى العام وواجه المحلفين قائلا :

ـ أظن أن حضراتكم قد اقتنعتم الآن أنه لا يمكن أن يكون هناك هدف آخر لفعل هؤلاء المتهمين سوى التخريب ...

وقام أحد المحامين يسأل الشاهد :

ـ هل يمكن حدوث التخريب بمجرد وضع الديناميت ؟

ـ لم أفهم هذ السؤال ...

ـ هل هذا الديناميت يحدث الانفجار بمجرد وضعه كما هو الحال فى القنبلة الزمنية ؟

ـ لا بالطبع .. لابد من الضغط على الآلة الناسفة ..

ـ وإذا لم يكن هناك ضغط أو أى نية أو رغبة فى الضغط على الآلة الناسفة ؟

ـ فى هذه الحالة ...

وهنا هب المدعى العام يقول :

ـــ ما هذا الكلام ؟ يريد الدفاع أن يفهمنا أن المتهمين وضعوا الديناميت ثم جلسوا أمام آلة النسف فى انتظار وصول الحراس ليقبضوا عليهم ؟

فرد المحامى على الفور :

ـــ هذا بالضبط ما حدث ..

والتفت المحامى إلى المحلفين وقال :

ـــ لو كان عند موكلينا نية التخريب لضغطوا فى الحال على آلة النسف قبل وصول الحراس .. لقد كان أمامهم الوقت الكافى ..

فقال المدعى متهكمًا:

ـــ وما هى النية التى كانت عند موكليكم ؟.. نقل التمثال من مكان إلى مكان ؟!...

فرد المحامى بهدوء :

ـــ مسألة نقل التمثال ليس المقصود بها النقل المادى إنما هو النقل الرمزى والمعنوى .. نحن أمام جيل جديد طاهر مثقف صريح يرى تمثال « الحرية تضىء العالم » فى وضعه هذا ومجتمعه هذا كذبًا

وزيفًا !..

فقال المدعى :

ـــ هذا الجيل الطاهر البرىء يلجأ ـــ مع ذلك اليوم ـــ إلى التخريب ..

وعندئذ علت صيحة احتجاج من المتهمين ودق القاضى بمطرقته يطلب السكوت .. وتهامس المتهمون مع هيئة دفاعهم لحظة ، وبعدها نهض أحد المحامين عنهم واتجه إلى القاضى قائلا :

ـــ إننا بالاتفاق مع موكلينا نطلب من المحكمة سماع أقوالهم كشهود ..

فالتفت القاضى إلى المدعى العام سائلا :

ـــ هل لدى الادعاء مانع ؟

فأجاب :

ـــ لا .. لا مانع ..

فأصدر القاضى قراره :

ـــ إذن ترفع الجلسة على أن تنعقد فى العاشرة من صباح الغد لسماع المتهمين كشهود ..

ونهض وغادر منصته .. ونهضنا جميعًا وخرجنا من القاعة إلى الطريق .

* * *

وسألنى صاحبى عن برنامج الليلة .. وعرض علىّ طائفة من الاقتراحات .. ولكنى لم أتحمس لها .. فالسهر يرهقنى .. وأنا لم أتجشم السفر إلى هنا لأشاهد مباهج الليل ، ولا لغرض السياحة فى المسارح والنوادى والحفلات ، ولكن للسياحة داخل الآراء والأفكار والعقليات .. ولقد بدأت أستشف من هذه القضية أنها المطلب والبغية ، وأنها تتفتح قليلا قليلا عن صميم ما نبحث عنه ونريد معرفته من كنه هذا المجتمع وما يتخمر تحته ويفور من مشكلات العصر .. فلنتفرغ إذن لهذه القضية .. ويحسن أن أنام مبكرًا لأصحو نشيطًا متنبهًا .. وتناولت بعض الطعام ومشيت مع صاحبى قليلا للرياضة قبل الرقاد .. وأضواء الحوانيت والملاهى فى شوارع نيويورك تتفجر من لافتات ساطعة مختلفة تتوهج بالومضات السريعة تريد أن تخطف الأبصار قبل أن تخطف ما فى الجيوب من كدح النهار .. مجتمع الاستهلاك الذى يقولون

عنه .. ساقية بشرية ضخمة تدور طول يومها لتصب عرقها فى مجرى نبعها .. هكذا إلى غير نهاية .. وهذا النبع الدائم الذى لا ينضب معينه أين تذهب حصيلته ؟!... هنا المسألة !... وعدت إلى فندقى وقرأت قليلا فى فراشى إلى أن غلبنى النعاس فنمت .. ونهضت فى الصباح .. فوجدت الصحف قد نشرت بحروف كبيرة خبر سماع المتهمين كشهود فى جلسة اليوم .. وما أن اقتربت الساعة من العاشرة حتى كنت أنا وصاحبى الصحفى فى المحكمة .. واتخذ الجميع أماكنهم فى القاعة .. ودخل القاضى وبدأت الجلسة الهامة التى ترقبها الناس .. ونودى على المتهم الأول ليجلس فى مقعد الشهادة ، ودعاه القاضى إلى الإدلاء بأقواله .. فقال :

ـــ نحن الأربعة منذ كنا ندرس فى جامعة هارفارد أنا وزميلى كنا فى قسم واحد من كلية الاقتصاد .. والزميلتان كانتا فى قسم آخر للعلوم الإنسانية والفلسفة .. ولم نلتق بهم إلا فى النادى حول حوض السباحة نتسابق جميعًا فى القفز والغوص فى الماء .. وبعد أن تخرجنا بامتياز استطعنا أن نحصل على وظائف طيبة فى الشركات

الكبرى .. ثم طلبنا فى حرب فيتنام .. وهناك جمعتنا المصادفة بالزميلتين وكنا نلتقى نحن الأربعة من حين إلى حين ونتجاذب الحديث ، وعجبنا لتطابق آرائنا واتحاد مشاعرنا إزاء هذا الذى نعيش فيه من فظاعة وبشاعة وبدأنا نسائل أنفسنا لماذا كل هذا ؟.. وعندما عدنا قررنا أن نفعل شيئًا يجعل العالم يسمع صوتنا .. ولم نجد خيرًا من المحكمة منبرًا لذلك .. واخترنا تمثال الحرية لنجعل منه مدخلا لقضية عامة .. وأعددنا كل شيء بغاية الدقة ليبدو الأمر كأنه جريمة تخريب .. وبهذا ندخل المحكمة ونتكلم وينشر كلامنا على الناس جميعًا بمختلف وسائل النشر والإعلام .. وهذا ما حدث ..

وهنا التفت القاضى إلى المدعى العام يسأله عما إذا كان يريد أن يستجوب الشاهد .. فنهض متحفزًا يقول :

ــ بالطبع هناك أسئلة كثيرة لابد منها إزاء هذه البراعة والبراءة التى يريد المتهم أن يصور بها الجريمة .. ويحسن أن نأخذ الوقائع بالترتيب .. أريد أولا أن تصف لنا حياتك العائلية ؟

فأجاب المتهم فى سخرية خفيفة :

ـــ حياتى العائلية عادية جدًا .. ليس فيها أى شذوذ .. فوالدى لم يطلق والدتى .. ووالدتى لم تتركنى أهيم فى الطرقات .. أى أنى شاب لا ينطبق عليه وصف ذلك الذى يسمونه اليوم الانحراف ..

فقال المدعى :

ـــ ومن الذى ذكر لك كلمة الانحراف ؟! إنى أسألك سؤالا عاديًا لتجيب عنه ببساطة ... ومع ذلك سأعتبر أنك أجبت .. وأسألك سؤالا آخر : ما هى الشركة الكبرى التى عملت فيها بعد تخرجك ؟

ـــ شركة بورتهيد لاحتكارات الصلب .. وكنت فى القسم المالى والتجارى ..

ـــ هل كنت موظفًا مرضيًا عنك ؟

ـــ نعم ... ولكننى لم أكن راضيًا عن عملى بعد أن تبين لى وجود ذلك الجسر القوى بين الشركة والبنتاجون .. وفهمت لماذا تقوم الحروب .. ومن أجل ماذا ولمن يموت مئات الألوف من الشباب الأمريكى ، والملايين من الأطفال والشيوخ والنساء فى آسيا ..

— هل تستطيع أن تدرك ذلك من عملك بالشركة ؟

— بالطبع .. فميزانية الشركة تدخل فى اختصاص قسمى .. وعندما أرى أكثر من مائة ألف مليون دولار قيمة عقود يمنحها العسكريون للشركة ، وهى صاحبة نفوذ فى الحكم ، يصبح من السهل معرفة صاحب المصلحة فى الحروب ...

— ألا تعرف أن نظام الحكم فى بلادنا هو الديمقراطية ؟

— نعم أعرف .. ولكنى بدأت أعرف أيضًا أن الاحتكارات والعسكرية هى الأصابع داخل قفاز الديمقراطية المطاط ..

— ألم تحاول أن تتحرى عن الأسباب السياسية التى جعلت من حرب فيتنام ضرورة قومية ؟...

— تحريت وسألت : لماذا لا نترك آسيا للآسيويين ؟.. ما هى الضرورة لأن نحشر أنفسنا هناك ؟.. ونمنعهم من اختيار النظام الذى يريدونه لأنفسهم ؟.. فكان الجواب : استقلالهم الاقتصادى .. لا نريد أستقلالهم الاقتصادى ...

— ألا تعرف أن استقلالهم الاقتصادى معناه انهيار اقتصادنا القومى ؟..

ـــ بل معناه انهيار اقتصاد الاحتكارات التى تتضخم بما نستنزفه من دم آسيا وإفريقيا وطعام الآسيويين والإفريقيين ..

ـــ وما الذى يهمك أنت من ذلك ؟..

ـــ يهمنى منع هذه الحروب التي لن تنتهى لأن آسيا وإفريقيا قد استيقظتا وستدافعان عن طعامهما الذى هو حياتهما ، والحلف العسكرى الاحتكارى لن يتراجع عن خطف هذا الطعام وهذه الحياة ، ولن يقبل أى انتقاص من وزنه وتضخمه ، لأن أى نقص لن يمكنه من إعطاء أجور ترضى عماله وأرباح ترضى مساهميه ... وعندئذ ينهار ... فهو لابد يدافع عن حياته أيضًا .. وإذن فهى حروب يقذف فيها بنا نحن الشباب لنموت أو نقتل غيرنا من الشعوب ... وعلى هذا نرى مجتمعنا كالغابة تقتل فيها الضوارى غيرها لتملأ به معدتها ..

ـــ إذن أنت تريد تغيير هذا المجتمع ؟

ـــ نعم .. لأنه مما ينافى الكرامة الإنسانية أن يبقى مثل هذا المجتمع ليراه القرن القادم ...

ـــ أنت إذن معترف بأنك أردت تغيير هذا المجتمع ؟ بأى

الوسائل إذذن تريد تغييره ؟ بالتدمير والتخريب ؟

ـــ بتدمير الأفكار القديمة ..

ـــ عن طريق العنف ؟

ـــ لا ... لا يمكن أن نؤيد العنف ونحن نرفض الحرب ..

ـــ هل أنت من شباب الهيبيز ؟

ـــ أنا من الشباب الذين يرفضون الحرب وينادون بالسلام !.

ـــ هذا لم يمنع أنهم اقترفوا مع ذلك جرائم القتل .. فما رأيك فى ذلك ؟

ـــ بالطبع لا يمكن لأحد من الشباب أن يوافق على ذلك .. وإذا كان المقصود قتلة شارون تيت والمذبحة التى تمت فى منزلها فكلانا اقشعر بدنه عند مطالعة مذكرات المتهم مانسون .. إنه طراز من راسبوتين يخلط المسيح بالشيطان ويمزج السماء بالدماء ... إنه طراز وحده لا يدل على شيء ولا يعبر عن أحد .. ولا يمثل إلا نفسه ..

ـــ ألا تعرف فى شباب الهيبيز الآخرين بسلوكهم المنفر نوعًا من التخريب للمجتمع ؟

ــ إنه تخريب لأنفسهم قبل كل شيء .. وإذا كانوا قصدوا تخريب المجتمع من خلال تخريبهم لأنفسهم فهى تضحية ككل التضحيات الأخرى .. وعندما يجدون أنه لا خيار لهم بين أن يموتوا فى الحروب من أجل الرأسمالية الاحتكارية أو أن يموتوا بالضياع كرهًا فى هذه الحروب فالأمر عندهم سيان ...

ــ إذن أنت توافق على التخريب ؟ سواء للمجتمع أو للذات ؟

ــ أنا لا أحب ارتكاب جريمة مهما يكن نوعها ...

ــ هل سبق لك تعاطى المارجوانا أو أى نوع من المخدرات ؟

ــ لا ، ولا أحب للشباب أن يلجأ إلى تعاطيها مهما تكن الدوافع .. وأعتقد أنها نسبة ضئيلة من بين ملايين الهيبيز الذين يتعاطونها أو يمارسون الجنس علنًا أو يأتون هذه المباذل التى يضخمها وينشر أخبارها من يهمهم مكافحة حركة الشباب ضد الحروب بتشويه وجه هذه الثورة ..

ــ وهل أنت من المنتمين إلى هذه الثورة ؟

ــ نعم .. كل ثورة ضد هذه الحروب القذرة ومشعليها من

الاحتكاريين والعسكريين أنتمى إليها ..

— ولماذا الشباب هم القائمون بالثورة ؟

— لأنهم هم الذين سيشاهدون القرن الحادى والعشرين .. ويريدون أن ينقلوا إليه مجتمعًا نظيفًا .. هذه هى القضية لا يمكن أن نسمح نحن الشباب لهذا المجتمع الفاسد أن يتخطى أعتاب القرن الجديد .. سنفعل كل شىء كى نمهد للقرن الجديد بأفكار جديدة، كما مهدت الثورة الفرنسية للقرن التاسع عشر بالأفكار الجديدة والمجتمع الجديد .. وكما مهد القرن التاسع عشر للقرن العشرين بالأفكار الاشتراكية الجديدة ...

— وما هى فى رأيك صورة المجتمع فى القرن القادم ؟

— من الصعب على الثورة أن ترى بوضوح مجتمع قادم . هل كان الثوار فى فرنسا مثلا عندما هدموا الباستيل يتصورون نظام المجتمع بعد ثلاثين عامًا ؟

— إذن هدم الباستيل فى رأيك هو أهم خطوة فى الثورة ؟

— لقد كان رمزًا .. مجرد رمز ...

— مثل هدم تمثال الحرية ؟

— لم نصل بعد إلى هذا الحد ...

— وما الذى وصلتم إليه ؟

— بذرة الثورة ... وقد بدأت تنبت فعلا فى هذا المجتمع ..

— تقصد الثورة على نظام هذا المجتمع ؟

— نعم ..

— وما هو الفرق بين التخريب والثورة ؟

— تستطيع أن تجيب خيرًا منى كل من الزميلتين .. فقد درستا العلوم الإنسانية والاجتماعية ...

— عندما كنت تدرس فى الجامعة هل كنت طالبًا ثائرًا ؟

— لا .. كنت طالبًا عاديًا ...

— متى بدأت عندك فكرة الثورة ؟

— بعد عودتنا من فيتنام كما سبق أن قلت ...

— وبقية الشباب الذى لم يذهب إلى فيتنام كما بدأت عنده فكرة الثورة ؟

— لا أدرى ...

— هل يوجد قادة يوجهون هذه الحركة ؟

ـــ لا علم لى بذلك ...

ـــ من منكم كان صاحب الفكرة فى تخريب تمثال الحرية ؟

ـــ كلنا فكرنا فى هذا فى وقت واحد ...

ـــ ومن رسم خطة التنفيذ ؟..

ـــ أنا ..

ـــ ومن أين حصلتم على الديناميت وآلة النسف ؟

ـــ أبى يعمل فى شركة مقاولات .. وقد استطعت أن أحصل على هذه الأدوات من مخازن الشركة ...

ـــ بعلم والدك ؟...

ـــ لا ..

ـــ سرقتها إذن ؟

ـــ استعرتها .. لم يكن فى نيتنا بالطبع امتلاكها أو الاحتفاظ بها ..

ـــ مفهوم .. نيتكم دائمًا بريئة ؟ ومن الذى وضع أصابع الديناميت فى الصخرة ؟

ـــ أنا .. بمساعدة الزميلتين ..

ــ وزميلكم الرابع ماذا كان عمله ؟

ــ تركناه فى الزورق لأنه لا يحسن الغطس ..

ــ ومن الذى كان عليه أن يضغط على آلة النسف ؟

ــ لا أحد .. لأنه كما قلنا لم نكن ننوى أن ننفذ النسف ..

ــ إذا كانت هذه حقيقة نيتكم فلماذا لم تضعوا أصابع ديناميت فارغة أو لم تأتوا بآلة نسف غير صالحة للاستعمال ؟

ــ فكرنا فى هذا فعلا .. ولكننا وجدنا أن هذه المهزلة ستنكشف فى الحال .. وبذلك تفسد الخطة كلها ولن يتاح لنا الدخول إلى هذه المحكمة ...

ــ والآن وقد دخلتم فما هى الرسالة الخطيرة التى تريدون إعلانها من فوق هذا المنبر ؟

ــ نريد أن يعرف الناس بصورة حاسمة أنه توجد الآن قضية .. قضية جدية .. هى قضية القرن الحادى والعشرين .. القرن الذى لن يدخله عدوان ولا تفرقة عنصرية أو اجتماعية أو رأسمالية احتكارية .. قرن الحب والسلام والإخاء الإنسانى .. وأن الثورة قد بدأت داخل هذا المجتمع العدوانى البالى ولن يقف فى

سبيلها شيء إلى أن تظهر بشائر المجتمع الجديد .. ونحن نطالب الناس جميعًا من هنا أن يثوروا معنا على الأفكار القديمة التى لا تصلح للحياة فى عالم الغد .. وأن يعدوا أنفسهم لتقبل التغيير الذى لابد من حدوثه .. وإلا جرفتهم الأجيال الطالعة مع نفايات القرن المغتصب ..

ــ هل عندكم فكرة واضحة عن طريقة تغيير المجتمع الحالى ؟

ــ لست أفهم السؤال ..

ــ الثورة التى تقول إنها ستغير المجتمع هل هى ثورة اجتماعية شعبية أو سياسية برلمانية أو انقلابية عسكرية ؟

ــ لا يمكن تصور شيء من هذا فى أمريكا ..

ــ إذن ما هذه الثورة ؟

ــ هى ثورة الأفكار الجديدة لجيل جديد ..

ــ تقصد هذا الجيل من الشباب الضائع الهائم كالكلاب الضالة القذرة ؟

ــ هذا الجيل هو الطليعة المضحى بها ، هو الحطب والوقود فى نيران الثورة التى ستأكل الأفكار والقيم البالية .. ليظهر بعد ذلك

الشباب الحى الذى سينتقم لهم بأفكاره وقيمه الجديدة التى تلائم القرن الحادى والعشرين ...

ـــ وهل مجرد الثورة الفكرية بغير العنف لها الفاعلية الكافية ؟

ـــ ليس العنف ضروريًا فى كل الأحوال لإحداث التغييرات الكبرى .. لقد استطاع رجل عارى الجسم إلا من خرقة أن يطرد إمبراطورية كبرى من بلاده .. ذلك هو الزعيم الهندى غاندى ..

ـــ إذن أنت تتصور ثورة الشباب على طريقة غاندى ؟

ـــ لا أظن تصورهم بالثورة الآن هكذا وخاصة شباب الهيبيز لم يدرس هذا الرجل دراسة كافية .. لقد كان هو أيضًا بجسمه العارى وعنزته لا يحفل بالمظاهر ، ولكن تجرده وانطلاقه أثار فى الناس العطف والاحترام ، ولم يثر فيهم الاشمئزاز الذى يثيره التجرد والانطلاق القذر عند أغلب هؤلاء الشباب .. ولذلك فقدوا جزءًا كبيرًا من معركتهم لمجرد المظهر .. واستعملت ذلك المخابرات المركزية فحرضت عليهم الرأى العام وتحرش بهم السخفاء والبسطاء والجهلاء ..

ـــ هل تعتقد أن هؤلاء الشباب لديهم إيمان حقيقى بهذه الثورة

التى تقول عنها ؟

ـــ لا أظن تصورهم للثورة الآن مثل تصور الكبار الناضجين .. إن أغلبهم صغيرو السن .. والثورة عندهم تلقائية وليست فكرية .. وهم يفهمونها على أنها طريقة حياة يجب أن تكون مختلفة عن طريقة أسلافهم .. إنه مجرد إحساس بعصرهم الجديد .. وإحساسهم بالعصر هو الذى يربطهم ويوحدهم .. فالوحدة فى الملبس والمظهر بين الأمريكى والأفريقى والآسيوى اليوم مرجعها الإحساس الشديد بالعصر .. السن والعصر يؤثران فى شباب العالم كله بشكل واحد برغم اختلاف المجتمعات والبيئات ..

وسيقضى هذا ولا شك على التفرقة العنصرية والاجتماعية فى المستقبل .. أما الثورة من حيث هى إيمان بمذهب محدد فهى من عمل القادة والمفكرين والمقننين .. وسيأتى ذلك فى حينه ..

ـــ ألا تعتبر الانطلاق من حدود القيم السائدة هو نوع من التخريب ؟

ـــ لست أنا الذى يعتبر .. قوانين الدولة هى التى تعاقب ما

تعتبره من قبيل التخريب .. فالمخدرات مثلا للسلطات أن تقبض على من يتعاطاها .. ومتعاطيها ليس الشباب وحده .. بل إن أى إحصائية تدل على أن نسبة المدمنين من الكبار والكهول والشيوخ أكبر بكثير .. وهؤلاء الكبار هم الذين يزرعون ويصنعون ويتاجرون فى المكيفات كلها .. وهم المسئولون ..

ـــ تقصد أن الأجيال القديمة مسئولة عما يحدث ؟

ـــ هذا بديهى ..إذا لم يكن الفساد منها فما حاجتنا إلى الثورة عليها ؟!

ـــ أنت تزعم أن ثورتكم بعيدة عن العنف فلماذا لجأت إلى شكل من أشكال العنف وهو محاولة تخريب تمثال من ممتلكات الدولة ؟

ـــ سبق أن قلت أن نيتنا لم تكن التخريب ...

ـــ أعرف ذلك .. ولكنى لا أتكلم عن النوايا الآن .. إنى أتكلم عن شكل التصرف والإجراء .. فمثلا إذا كنت تناقش شخصًا فى موضوع الحب والحرية والسلام ثم أخرجت له مسدس طفل ، وتوهم هو أن الأمر جد ، ألا تكون قد لجأت معه إلى

موقف من مواقف العنف ؟

ـــ بالطبع .. ولكن فى حالتنا الأمر مختلف .. فنحن لم نرد التهديد ولا التخويف ولا التأثير .. نحن أردنا فقط التذرع بوسيلة تدخلنا المحكمة لنناقش علنًا قضية عصر قادم ..

ـــ ولماذا لا يكون هناك تصوير آخر للواقعة .. وهو أنكم أردتم إفهام الشباب الثائر المتطلع إليكم أن الالتجاء إلى شكل من أشكال العنف ممكن أو ضرورى عند اللزوم كوسيلة مجدية ..

ـــ لم يخطر على بالنا أن نكون قدوة للشباب فى ذلك ..

ـــ أتظن هذا يدرأ المسئولية عنكم ؟

ـــ لا أدرى ..

ـــ هل تعلم بوجود خطة أو اتجاه عند الشباب لاستعمال العنف فى المستقبل ؟

ـــ لا أعلم ..

ـــ هل تعتقد أن ثورة الشباب لابد أن تؤدى حتمًا إلى استخدام العنف ؟

ـــ ليس من المحتم .. فكل الظواهر حتى الآن تدل على أنها من

نوع — المقاومة السلبية — وإذا كان غاندى قد استطاع أن يقهر بها الإمبراطورية البريطانية فإن ثورة الشباب تستطيع بها أيضًا أن تقهر الإمبراطورية الأمريكية الرأسمالية وذلك بعد أن تتجاوز مرحلة الانطلاقة الأولى التلقائية الغريزية الهوجاء .. ويبدأ هذا السيل المندفع فى حفر المجرى المنتظم ..

— هل تعلم بوجود منظمات قيادية تعمل فى هذا الاتجاه ومن أجل هذا الغرض ؟

— لا .. لا أعلم ..

— ولكنك لا تستبعد وجودها أو التفكير فى إيجادها ؟

— هذا محتمل جدًا ..

— هل هناك كتابات بالذات موجهة أو مؤثرة فى الشباب ؟

— بالطبع لابد أن الشباب الذى يقرأ يجد فى بعض الكتابات ما يؤثر فيه وربما ما يساعد على تكوين فكره الثورى ولكن هذه نسبة ضئيلة من الشباب .. أما الملايين فلم تزل بعيدة عن هذه القراءات ، وهى الآن كما قلت فى مرحلة التجمع والتوحيد وتقليد بعضها البعض تلقائيا والانطلاقة الثورية الغريزية .. وهذه مرحلة

طبيعية فى بداية الكثير من ثورات التاريخ ، تبدأ كتل الشعب فى الانطلاق المندفع بهدف عائم أو مطلب عام قبل أن تدخل فى مرحلة التفكير الثورى المنظم المحدد الواضح المدروس ..

ــ هل تعرف أحدًا من زعماء ثورة الشباب هذه ؟

ــ لا ..

ــ إذا كنت تعرف فهل كنت تقول لنا ؟

ــ ليس هناك ما يمنع إذا لم أكن مرتبطًا بوعد أو بقسم ..

ــ هل فى مثل هذه الأحوال توجد ارتباطات أو نوع من الحظر على حرية القول ؟

ــ لا أعرف .. وليس من الضرورى ... ولكنى أقصد أن أى شخص يرجو منك عدم ذكر اسمه فى مناسبة من المناسبات أو فى أى موضوع مهما يكن عاديًا أو تافهًا فإن الواجب أن تلبى طلبه ..

ــ شكرًا ..

* * *

قالها المدعى العام وانصرف عن الشاهد .. وهنا التفت القاضى

إلى الدفاع وسأله عما إذا كان يريد هو أيضًا بدوره أن يلقى أسئلة على موكله قبل أن يترك مقعد الشهادة .. فأجاب الدفاع بالنفى والاكتفاء بما أدلى به موكله من أقوال .. وعندئذ هم القاضى برفع الجلسة ..

وقبل أن يرفع القاضى الجلسة طلب المحامى أن تخصص جلسة الغد لسماع موكلته المتهمة الثانية كشاهدة فوافق القاضى ونهض منصرفًا .. ونهض الجميع وخرجوا من القاعة وخرجنا معهم أنا والصحفى . وسرنا صامتين نفكر فيما سمعنا .. أو على الأصح كنت أنا الذى أفكر مأخوذًا وكان هو يختلس إلىّ النظر ، كما لو كان يتحين الفرص ليستطلع رأيى .. وكنت كلما أدركت منه هذا الغرض أمعنت فى الصمت الذى يقطع عليه السبيل .. ودخلنا أحد المطاعم .. ثم خرجنا لنجد بعض الصحف قد ظهرت تحمل العناوين المختلفة بالخط الكبير منها ما يقول : « جلسة اليوم المثيرة » .. ومنها ما يعلن : « الثورة فى أمريكا » .. ومنها أيضًا : « اليسارية تجتاح الشباب » .. واختطفنا الصحف وانهمكنا فى قراءة التعليقات المتضاربة على ما شاهدناه وما سمعناه بأنفسنا طول النهار !!..

(٢)

حاول صاحبى الصحفى الأمريكى أن يغرينى مرة أخرى بالحديث فى شهادة المتهم اليوم ، واستطلاع رأيى فيها .. وكنا قد جلسنا فى مشرب الفندق نتناول القهوة .. وكان يدون فى دفتره الصغير بعض نقاط من حين إلى حين .. فعلمت أنه لابد سيكتب لصحيفته عن القضية .. إذ ليس من المعقول أن ينفق صحفى وقته كله فى قاعة جلسة ، يستمع فيها إلى قضية هامة تهز البلد ، ولا يخرج من كل ذلك بمقال .. ولكن ما هو نوع الكلام الذى سيكتبه؟ ها هى ذى تعليقات الصحف.. أكثرها يدور حول مقدرة الشباب فى إحداث تغيير حقيقى فى المجتمع الأمريكى .. وبعضها يتناول ثورة الشباب بالتشهير والسخرية والتشويه .. ولكن البعض يبدى اهتمامًا شديدًا بما ذكر فى جلسة اليوم عن « المقاومة السلبية » وكان الاهتمام عند بعض آخر مشوبًا بالقلق .. فمما لا شك فيه أن هذا السلاح السلمى قد نجح فى الهند

على يد غاندى .. وقول المتهم فى شهادته أنه إذا كان غاندى قد قهر الإمبراطورية البريطانية بالمقاومة السلبية فليس هناك ما يمنع الأجيال الجديدة من قهر الإمبراطورية الأمريكية بنفس السلاح.. ولكن السؤال الذى تردد هو هل روحانية غاندى والهند لها الدخل الأكبر ؟ وهل الشباب الأمريكى له مثل هذه الروحانية ؟ أم أن هذا السلاح يمكن استخدامه فى أى بلد وأى عصر ؟ فإذا تذكرنا أن فكرة « المقاومة السلبية » ليست هندية ، وأن غاندى قد اعترف فى شجاعة العظمة النادرة أنه استعارها من تولستوى ، وإن ما نبت فى أرض روسيا قد أمكن استيراده واستنباته فى أرض الهند ، فإن من الممكن أيضًا أن تنتقل الفكرة من بلد فى الشرق إلى بلد فى الغرب وتنبت وتؤتى نفس الثمار ..

كل هذه التعليقات بما تعكسه من اتجاهات تعبر عن قلق واهتمام بمصير أمريكا وحدها .. ولكن المتهم فى شهادته تحدث عن شىء لم تركز عليه الصحف التركيز الكافى .. ذلك إشارته إلى القرن الحادى والعشرين وقوله إن القضية فى الحقيقة قضيته ، وأنه يجب الحيلولة دون وصول العدوان إليه فى كافة صوره .. إنها مهمة

الشباب فى العالم كله إذن وليس الشباب الأمريكى وحده .. لأن القرن القادم هو ملك كل شاب على كوكب الأرض مهما تختلف الألوان والأجناس .. وكل شاب على هذه الأرض من مشرقها إلى مغربها مسئول عن الإعداد للقرن الجديد الذى سيسكنه هو بمفرده وليس الآباء والأسلاف .. لقد كانت شهادة المتهم الأول اليوم واضحة فى هذا المعنى .. ترى ما الذى يمكن أن تدلى به غدًا المتهمة الثانية ؟ إن اشتياقى لشديد !.. حبذا لو أسرع الغد بالمجىء لأجد نفسى فى قاعة الجلسة .. وتركت صاحبى الصحفى يذهب لأعماله أو مقاله .. على أن نجتمع فى صباح اليوم التالى .. ولزمت حجرتى بالفندق ..

وجاء الصباح .. وسرنا معًا إلى المحكمة .. وافتتحت الجلسة وطلب القاضى من المتهمة الثانية أن تتقدم وتجلس فى مقعد الشهادة .. كانت امرأة شابة دون الثلاثين بقليل ، متوسطة الجمال ، تضع على عينيها نظارة طبية تلمع خلفها نظرات ذكية لماحة ، وشعرها الأشقر مصفوف فى أناقة ولياقة .. لم يكن فى مظهرها شىء خارج أو صارخ أو غير عادى .. وهذا أيضًا ما

يتصف به المتهمين الآخرين .. لم يكن فى مظهرهم الخارجى ما يستلفت النظر .. ولذلك اتجه التفاتنا من أول الأمر إلى أفواههم لا إلى أشكالهم ..

دعاها القاضى إلى الكلام فقالت فى بساطة واختصار :

— ليس عندى ما أضيفه إلى أقوال الزميل أكثر من أنى وزميلتى بعد أن تخرجنا معًا من كلية العلوم الإنسانية بدرجة ممتازة ثم تعيننا فى مكتبة الكونجرس ولبثنا بها إلى أن دعينا للعمل فى فيتنام .. وبعد عودتنا واجتماعنا نحن الأربعة جعلنا نفكر فى مصير العصر الذى نعيش فيه .. وما ينبغى لنا فعله على الصورة التى وصفها الزميل ..

وسكتت .. فقام المدعى العام يستأذن القاضى فى استجواب المتهمة فأذن له .. فقال :

— لن أثقل على الشاهدة بسؤالها عن أسرتها أو نشأتها .. فواضح أننا أمام نوع من الشباب لا يصدر فى جرائمه من انحراف أخلاقى وسلوكى ، ولكن عن انحراف عقلى وتفكيرى .. وإنه لمن العجب أن تعيش المتهمة بين الكتب فى مكتبة عظيمة كمكتبة الكونجرس ويخطر لها الاشتراك فى جريمة تخريب .. ولذلك أريد

أن أسألها : ألم تشعر فى وقت ما بخطأ ما هى مقدمة عليه ؟

فقالت بهدوء : لم أشعر بأى خطأ.. بل الخطأ الوحيد فى نظرنا هو السكوت على أخطاء هذا العصر ..

— وهل أخطاء هذا العصر لم تتكشف لك إلا من حرب فيتنام ؟

— هذه الحرب وغيرها هى نتيجة من نتائج هذه الأخطاء .

— وهل تصحيح هذه الأخطاء يكون فى رأيك عن طريق الجريمة ؟

— لا بالطبع ..

— إذن لماذا لجأت مع شركائك إلى التخريب ؟

— لم نقصد التخريب ...

— وماذا كنتم تقصدون ؟

— كنا نقصد منع وصول أخطاء هذا القرن إلى القرن القادم .. وكنت أفكر كثيرًا فى ذلك أثناء عملى بمكتبة الكونجرس وعندما كنت أراجع الفهارس كانت بعض الكتب تبدو لى مسئولة عن كثير من الكوارث .. مثل تلك التى تمجد الحروب ،

وتقدس أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون .. ورأيت الخير فى إبادة هذه الكتب حتى لا تصل إلى الأجيال القادمة .. وفكرت فى حرق القسم الذى يحتويها من مكتبة الكونجرس ..

— حرقها ؟ وبأى وسيلة كنت ستحرقين مكتبة الكونجرس ؟

— ما معنى هذا السؤال ؟

— هل فكرت مثلا فى استخدام النسف بالديناميت أو بقنبلة زمنية تضعينها فى أحد أركان مكتبة الكونجرس ؟

وهنا هب المحامى الموكل بالدفاع عنها يصيح :

— إنى أحتج .. إن المدعى العام يستغل سوء دفاع موكلتى وسوء تعبيرها بفلتة كلمة عابرة ليجعل من ذلك موضوع اتهام جديد يكبلها به ...

فقال المدعى العام : إنى لا أوجه اتهامًا جديدًا .. ولكن ما دام قد ورد فى أقوال المتهمة ما يدل على سبق وجود فكرة التخريب لديها فلابد من تتبع هذه الفكرة ..

والتفت إلى القاضى مستطلعًا رأيه فأشار إليه بالمضى فى أسئلته فعاد إلى المتهمة يسألها : هل أخبرت أحدًا من شركائك بالفكرة

التى خطرت لك بحرق مكتبة الكونجرس ؟

— أخبرت زميلتى فقط .. فضحكت .. وضحكنا ولم نأخذ الأمر بعد ذلك مأخذ الجد ..

— هل ضحكتما من الفكرة لصعوبة تنفيذها ؟

— نحن لم نفكر أبدًا فى التنفيذ ..

— وكيف فكرتم إذن فى تنفيذ الجريمة الأخرى .. وهى تخريب تمثال الحرية ؟

— سبق أن قلنا إننا لم نقصد التنفيذ .. ولكن قصدنا فقط تمثيل مظهر الجريمة دون ارتكابها بالفعل ..

— وهل عندما فكرت فى حرق مكتبة الكونجرس كان قصدك أيضًا عدم تنفيذ الحرق الفعلى ؟

— ولِم لا ؟

— هذه ليست إجابة يجاب بها فى قاعة محكمة .. نريد منك جوابًا قاطعًا واضحًا ..

— فكرة حرق مكتبة الكونجرس فكرة سخيفة ، ونتيجة انفعال طارئ ..

— وما الفرق بين حرق مكتبة الكونجرس وحرق تمثال الحرية ؟

— حرق الكتب على كل حال عمل همجي .. مهما يكن نوع الكتب ومبلغ ضررها ..

— وكيف تمنعين هذه الكتب الضارة من الوصول إلى الأجيال القادمة ؟

— بالثورة عليها ..

— ما هى العلاقة بين الثورة والتخريب ؟

— ليس من الضرورى أن توجد دائمًا علاقة بين الثورة والتخريب .. هناك تخريب بدون ثورة .. كما أن هناك ثورة بدون تخريب ..

— كيف تقوم ثورة بدون تخريب ؟

— التخريب هو التخريب .. والثورة هى إرادة التغيير .. وقد تنشأ إرادة التغيير ويحدث التغيير فعلا دون تخريب أو عنف .. وقد سبق لزميلى أن ذكر شيئًا عن المقاومة السلبية وهى سلاح الثورة السلبية .. وقد تحدث الثورة أيضًا بغير مقاومة إطلاقا إذا كان

الشعور العام يريدها ويؤيدها فلا تجد فى طريقها أى اعتراض ..

— ولكن من النادر أن تحدث ثورة بغير عنف ..

— إن العنف يأتى من وجود اعتراض مضاد للثورة ، أى قوة تقف فى وجه إرادة التغيير ، وتعمل على صدها بالعنف .. فلا تجد الثورة بدًا هى الأخرى من شق طريقها بنفس العنف ، إن العنف يولد من العنف ..

— ولماذا فكرتم أنتم فى بداية ما تسمونه ثورتكم باستخدام العنف ؟

— سبق أن قلنا إننا لم نقصد غير مجرد استلفات النظر ..

— ولماذا يكون لفت النظر بالجريمة ؟

— قلت الآن إنها ليست جريمة .. ولكنها تمثيل فقط لمظهر الجريمة ..

— تمثيل العنف بمظهر العنف أليس هو نوعًا من الإرهاب ؟

— لم نقصد الإرهاب ...

— إنه على كل حال اعتراف منكم بقيمة العنف ..

— نحن ضد استخدام العنف ..

— ولكن قيامكم بتمثيله على حد قولكم ، وإتقان هذا التمثيل

هو دليل قاطع على أنكم لم تسقطوه من حسابكم .

— إنه مجرد مظهر ..

— أليس فى الالتجاء إلى مجرد المظهر دليل على أنكم فى حاجة إليه .. وإلى أن مجرد صورة الجريمة مفيدة لكم فى القيام بنشاطكم ؟

— مع الأسف إننا نعيش فى مجتمع لا يلفت نظره شيء مثل مظهر الجريمة أو منظر مظهر الجريمة أو منظر الشذوذ ..

— ما هو سبب عداوتكم لهذا المجتمع وثورتكم عليه ؟

— سبق أن تكلم زميلى فى هذا .. ولا أرى داعيًا إلى تكراره .. ولكن لا بأس من أن أؤكد معه مرة أخرى أن هذا المجتمع غير صالح للحياة المستقبلة .. فهو يعيش مخدرًا .. ولابد من هزة توقظه وتفيقه ليدرك أنه يحلم دائمًا بصورة قديمة ، فى وقت يبشر فيه إنسان الفضاء ببداية تفكير جديد .. هذا المجتمع الذى لا يعجب ولا يدهش لساسة وقواد ما زالوا يحلمون بسطوة الإمبراطوريات الغابرة ، ولحكام ودول ما زالت تحلم بإعادة مجد ملوك التوراة ، ويعجب ويسخر ويتهم بالبدائية شبابًا يطلقون الشعر ويسيرون

وهم عراه !.. مثل هذا المجتمع الذى يرى الشذوذ فى السفاسف ولا يراه ولا يحاربه فى العقول والأحلام التى تجر إلى الكوارث هو مجتمع غير جدير بالحياة فى القرن القادم ...

— إذن أنتم تريدون أن تهدموا فى المجتمع صور الماضى ؟

— نحن نريد من المجتمع أن يكون جديرًا بعصره وأن يتأمل بتفكير طليق حر كل الصور والقيم ، وأن يحللها على ضوء الحاضر والمستقبل ليستبقى منها فقط ما يمكن أن يبنى به إنسانية جديدة فى عصر الفضاء الجديد ..

— ومن الذى له حق الحكم على الصور والقيم ؟. أنتم ؟!

— نحن وغيرنا .. حتى الكهول والشيوخ .. كل من استطاع أن يتحرر بعقله وفكره من جاذبية الأرض المعنوية للعادات الموروثة والأفكار المغروسة ..

— إذن أنتم تريدون هدم القيم والأفكار التى يعيش عليها المجتمع ؟

— نحن نريد أن نقول إنه فى عصر الإنسان الجديد لا توجد مسلمات وأن كل شىء يجب أن يعاد فيه النظر ..

— ألا تعتقدون أنه لابد من مسلمات يرتكز عليها المجتمع وأن من يهدمها مثل من يهدم أساس بيت بحجة إعادة بنائه ؟

— نحن نريد فعلا إعادة بناء المجتمع ..

— أليست إعادة البناء تقتضى الهدم أولا ؟

— طبيعى ..

— شكرًا ..

وترك المدعى العام المتهمة والتفت إلى المحلفين قائلا :

— لقد وصلنا أخيرًا إلى النتيجة الطبيعية ، وهى وجود نية الهدم والتخريب عند هؤلاء المتهمين .. وقد اعترفت أمامكم هذه المتهمة بأن هدم المجتمع بدعوى إعادة بنائه هو شىء طبيعى .. فإذا زعموا لنا أن نية التخريب لم تكن موجودة لديهم عندما وضعوا الديناميت فى أسفل التمثال واستعدوا للنسف بجهاز صالح للاستعمال كان على وشك التفجير وإحداث الآثار المدمرة ، إذا زعموا لنا ذلك ، وحاولوا إيهامنا ببراءة قصدهم فهل نصدقهم ؟ وإذا تذكرنا تفكير المتهمة فى حرق مكتبة الكونجرس فهل نصدقها ؟

وأخذ المحلفون يتفرسون فى وجه المتهمة وهى فى مكانها جالسة بمقعد الشهادة هادئة رابطة الجأش .. ونهض المحامى عنها يطلب مناقشتها .. فسمح له القاضى بذلك .. على أن تبدأ هذه المناقشة بعد الظهر ، بناء على طلب الدفاع ، حتى لا يكون هناك إرهاق لموكلته .. ورفعت الجلسة .. وخرجنا أنا وصاحبى الصحفى نتناول القهوة والشطائر ونمشى فى الشوارع ... وإذا الصحف قد ظهرت تحمل العنوان الضخم المثير « حرق مكتبة الكونجرس » !.. على أن الشوارع كان فيها من المظاهر المثيرة ما يبعث كذلك على العجب والتفكير ... ففى كل منعطف كنا نصادف طوائف من الجموع تحمل لافتات عليها شعارات غريبة وأحيانا متناقضة . فمنها ما يطالب بالمساواة بين البيض والسود .. ومنها ما يطالب بسحق السود .. ومنها ما يطالب بمنع الحروب .. ومنها ما يطالب بإباحة الشذوذ الجنسى .. ومنها ما يعلن أنه يحبذ سيادة الرجال على المرأة ، ومنها ما يبارك سيادة المرأة على الرجل ، إلى آخر ما يمكن تصوره من صيحات وتشنجات وتقلصات تنم عن مجتمع فى حالة مرض نفسى .. وكان صاحبى يمر بكل ذلك

ولا تبدو عليه الدهشة ، كأنها مشاهدة عادية يومية .. ولكن الأمر معى مختلف فأنا القادم من بعيد بدأت ألمح فى كل هذا الذى أرى نذيرًا لشيء سوف يحدث ، ليس من السهل الآن تبين ملامحه ..

وجاء وقت العودة إلى المحكمة .. فعدنا إليها وجلسنا فى أماكننا المعتادة ولم تلبث الجلسة أن عقدت .. واتخذت المتهمة الثانية مكانها فى مقعد الشهادة ، وأشار القاضى إلى محاميها ليبدأ مناقشتها .. فسألها المحامى :

ــ عندما قلت إنكم تريدون هدم المجتمع لإعادة بنائه هل كنت تقصدين بذلك الهدم المادى أو الهدم المعنوى ؟

فأجابت المتهمة على الفور :

ــ الهدم المعنوى طبعًا ..

ــ وهل كنت تقصدين أنك أنت بالذات المنوط بك مع زملائك القيام بهذا الهدم والبناء ؟

ــ لا .. ليس هذا قصدى .. عندما أقول نحن نريد هدم المجتمع أو إصلاحه أثما نستعمل أسلوبًا لغويًا فى التعبير يرادف قولنا

نتمنى أو نتنبأ .. لأن هذا عمل أكبر منا .. وكل ما نستطيع القيام به هو التبشير أو النذير أو توجيه النظر ..

— إذا كان فعلكم كمن يطلق شعلة فى الجو المظلم لينبه الناس إلى شىء ؟

— هذا هو ما أردناه بالضبط .

— وهذا الذى أردتم أن تعلنوه أو تنبهوا إليه هو لخير المجتمع ؟

— بالطبع .. كل تشخيص لحالة المجتمع هو لمصلحته .. هذا المجتمع اليوم فى حالة وحم يدل على أنه يحمل فى بطنه جنينًا .. وكل أعراض الوحم الشديد ظاهرة اليوم فى هذا القرف العام والقىء المستمر والمزاج العصبى والتوتر والقلق والشهية المفقودة أحيانًا أو المفتوحة للرغبات الشاذة أحيانًا أخرى .. والتراخى والترهل والإهمال والتفسخ والشكوى والصياح والشعور بالاختناق والرغبة فى الانطلاق .. إنه الوحم فى أشد حالاته مؤذنًا بتحرك الجنين فى بطن المجتمع الحامل ..

— ماذا تقصدين بهذا الجنين ؟

— هذا الجنين هو الثمرة الطبيعية لحادثين من أضخم أحداث

البشرية .. بل هما أضخم ما حدث للإنسان فى كل عصوره :
وهما إلقاء قنبلة هيروشيما ونزول الإنسان على القمر .. إننا لم نزل
فى نصف وعى لما جرى وللنتائج ، كمن تسرقه السكين .. وإذا
راجعنا التاريخ نجد مجتمعات قد قلبت قلبًا لأحداث أقل من ذلك
قدرًا وأهون شأنًا كظهور البارود أو البخار أو الكهرباء ولكن
لابد دائمًا من بعض الوقت لتحدث هذه الأحداث أثرها فى تحويل
المجتمع وقلبه وتغييره .. وهذا ما سيحدث حتمًا ..

ـــ فلنعد إلى صورة الجنين .. هل تعتقدين أن هذا الجنين
سيولد مشوهًا أو منتظم الخلقة ؟

ـــ أرجو أن يكون منتظم الخلقة ..

ـــ أليست ثورة الشباب هى أحد ملامحه ؟

ـــ أظن أنها أحد مظاهر الوحم .. إنها أحد دلائل الشىء ..
ولكنها ليست الشىء نفسه ..

ـــ هل أنت متفائلة بطبعك ؟..

ـــ لم أدرس نفسى جيدًا .. أحيانًا وأحيانًا .. لكن الذى يهمنى
هو محاولة رؤية الغد .. ربما تسرب إلى الرؤية بعض تمنياتى

الخاصة .. وكذلك بعض استنتاجاتى المبنية على القراءات والمشاهدات ..

— هل تقرئين كثيرًا ..

— كثيرًا جدًا .. أغلب وقتنا أنا وزميلتى نمضيه فى القراءة ونتبادل الكتب .. ووجودنا فى مكتبة الكونجرس معًا يسهل ذلك ..

— هل تعتقدين أن مجتمع الغد سيكون أفضل من مجتمع اليوم ؟

— إنه سيكون على كل حال ابن زمانه ..

— هل سيكون مجتمعًا علميًا أو بدائيًا ؟

— الأختلاف بين العملى والبدائى هو فى المنهج . وما نسميه العلم هو الوصول إلى المعرفة عن طريق المنهج العقلى وما نسميه البدائية هو الوصول إلى المعرفة عن طريق غير منهجى وغير عقلى .. ومجتمعنا قائم على أساس العلم العقلى .. وليس ما يمنع أن يضاف إليه غدًا طريق المعرفة البدائية ..

— أهو ارتداد إذن إلى الوراء ؟

ـــ ليس بالضبط .. يجب أولا أن نجد كلمة أخرى غير كلمة البدائية أو البدائى .. لأنه فى الحقيقة لا توجد بداية أو نهاية فى هذا الكون ... المقياس العقلى هو الذى اخترع هذه الكلمة ، لأنه لابد أن يعمل فى نطاق زمنى أو مكانى محدد .. أى لابد لهذا الجهاز من نقطتين ، نقطة ابتداء ونقطة وصول .. لكن الكون أو الطبيعة لا تعرف ذلك .. إنها تعرف فقط التحولات والتغيرات المستمرة ..

ـــ ألا يوجد إذن سير إلى الأمام ؟!...

ـــ بدون شك .. عندما يختار الإنسان طريقًا ويسير فيه فإنه يتقدم .. وهذا ما حدث للإنسان عندما أختار السير فى الطريق العقلى .. وصل فيه إلى هذه المخترعات المذهلة ولكن الإنسان قبل أن يختار الطريق العقلى كانت فى تركيبه قوى مذهلة أيضًا .. كان فى داخله جهاز رادار .. وكانت لديه حدة هائلة فى الإبصار ، سواء فى المنظور أو غير المنظور .. وكان يستطيع التحكم فى أشياء خارجية بمصادر خفية لقوى داخلية .. ولكن هذا الإنسان خطر له ذات يوم أن يستخدم أداة مع يده كفرع شجرة أو قطعة من

صخرة، فإذا به يخترع المدية والحربة، أى يكتشف فيه العقل الذى يفكر ويستخدم ويخلق ويخترع ،وحلا له ذلك فشغل هذا الجهاز العقلى فى اختراع تلو اختراع ، وأصبح مبهورًا بمخترعاته فاعتمد ونسى ملكاتها الأصلية فضمرت وتلاشت .. ومضى فى طريقه العقلى يخلق ويخترع ويكتشف حتى وصل إلى مجتمعنا اليوم .. مجتمع التكنولوجيا الحاسبة والعاقلة تفكر له وتعمل ..

— إذن هناك خطر على مجتمعنا هذا أن تضمر فيه أيضًا ملكة التفكير ؟

— ليس بهذه السرعة ولا بهذه السهولة .. ولكن الذى يحدث من حين إلى حين هو التنبه والالتفات إلى البحث عن المصادر الأخرى للمعرفة غير مصدر العقل العلمى المنهجى .. من ذلك اهتمام بعض العلماء بالروحانيات أو بالتحليل النفسى وما يسمى بالمناطق غير الواعية ، ثم ظهور المذاهب الفنية التى تحاول أرتياد المنابع التلقائية فى فنون الأطفال أو القبائل القريبة من بيئة الإنسان الأول ..

— ألا تعتقدين أن ثورة الشباب هى أيضًا بادرة من هذه

البوادر ؟

— محتمل جدًا .. الشباب بالطبع لا يفكر فى ذلك هكذا بطريق مباشر ، ولكن ربما كان الجو العام لمجتمعنا التكنولوجى يثير فيه تلقائيًا الرغبة فى الانفلات من مداره ، إما عن طريق العودة إلى بيئة الإنسان الأول بعريه وتحرره الاجتماعى ، وإما عن طريق الانطلاق من العقل كله بعقاقير تقذف به بعيدًا عن عصرنا ..

— هل تعتقدين أن شباب العالم متحد فى هذا الاتجاه ؟

— بالعكس .. هناك ظروف كل شعب على حدة ، وما ينطبق على مجتمع لا ينطبق تماما على مجتمع آخر .. كذلك الشباب نفسه يختلف بعضه عن بعض .. ولكن كلامى منصب على مجتمع مثل مجتمعنا هذا الرأسمالى أو التكنولوجى ...

— هل هناك أشياء يتحد فيها شباب العالم على اختلاف مجتمعاته واختلاف شعوبه وأجناسه ؟

— نعم ... هى الإحساس بروح العصر الجديد .. إنه إحساس شباب العالم كله اليوم بوحدة العصر ووحدة العالم .. وبالمستقبل المتحرر من القديم البالى .

ـــ كيف يمكن التوفيق بين رغبة التحرر من القديم ورغبة العودة إلى البدائية ؟

ـــ البدائية ليست هى القديم .. إنها الفطرة السليمة الأبدية فى الإنسان .. وإذا أخذت بالمعنى المتعارف عليه فى الفنون كما قلت من تشكيلية وموسيقية فإنها تعنى شيئًا مهما . أما القديم فالمقصود به التقاليد والعادات والأذواق التى راقت للسلف ويريدون فرضها على الخلف فرضًا لمجرد كونها قديمة ، كاعتبار خلع القبعة عند التحية أدبًا .. أو حلق الشارب أو الشعر واجبًا ، أو تذوق هذا النوع من الموسيقى أو من التصوير والنحت أو من الكتب أو الأدب تهذيبًا ..

ـــ هل تحبين بيكاسو ؟

ـــ أحب بيكاسو وكاندنسكى وبول كليه ، لأنه التفتوا إلى الفن الأفريقى البدائى لدراسة أسراره ، ولو كان بيتهوفن حيًا لاستلهم موسيقى الزنوج كما استلهم موسيقى الغجر فى سيمفونيته السابعة .. وكما استلهم شكسبير المهرجين فى نكاتهم وبذاءتهم .. إن العظيم يرى الأشياء عظيمة والصغير يراها

صغيرة ..

— لو فرض ولم يخطر للإنسان البدائى أن يختار طريق العقل واستمر فى طريق قواه الأخرى الخفية ، إلى أى مدى كان يمكنه التقدم فيها ؟

— لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال لأنى عاجزة عن تصور الإنسان بغير تقدمه العقلى ..

— إذن أنت مع التقدم ، ولست مع تدمير التقدم ؟

— بدون شك .. ولكن يجب دائمًا أن نحدد معانى الألفاظ .. ما هو معنى التقدم ؟ لقد سبق أن قلت إن الطبيعة لا تعرف غير التحولات والتغيرات الضرورية والصالحة للحياة .. فهى مثلا لو فهمت التقدم كما نفهمه لجعلت الخلية الأولى تتقدم فى زيادة الحجم تقدمًا مطردًا ومنتظمًا .. فالنملة مثلا تؤدى إلى الفأر ثم إلى القطة ثم إلى الكلب ثم إلى الإنسان ثم إلى البقرة وإلى الفيل إلى أن تصل اليوم إلى الدينوصور .. ولكن الذى حدث هو أن هذا التقدم الضخم فى الحجم جاء قبل الإنسان الصغير الحجم نسبيًا بنحو سبعين مليون سنة .. إذن هى تحولات وتغيرات طبقًا لظروف محيطة ..

وما نسميه بالتقدم أو التضخم العقلى للإنسان اليوم قد يصل غدًا إلى حد يجعل من الضرورى لحياته أن تحدث له تحولات وتغيرات أخرى ..

ـــ هل هناك أمل أو وسيلة لكى يسترجع الإنسان بعض ما فقده من القوى الخفية البدائية ؟

ـــ أظن هذا يحدث فى كل عصر من عصور التاريخ فهناك دائمًا محاولات لمن يسمونهم السحرة أو الكهان أو فقراء الهنود .. من الحقيقيين طبعًا لا المشعوذين .. وقد وصل بعضهم بنوع من المران الطويل أو التصوف أو التجرد الروحى أو الشفافية النفسية إلى شىء من التحكم فى الأشياء البعيدة وتحريكها ونقلها بقواه الداخلية وحدها دون أى تدخل مادى ..

ـــ ما رأيك لو استطاع النوع البشرى كله استرجاع هذه القوى الخفية ؟

ـــ سيكون ذلك بالطبع شيئًا رائعًا .. ولكنى لا أريد أن أكون موجودة لأرى ذلك ...

ـــ لماذا ؟

ــ يخيل إلىّ أنى لن أكون سعيدة فى عالم كهذا .. نعرف فيه ولا نخلق ..

ــ هل هى عادة تشغيل جهاز العقل ؟

ــ لست أدرى .. ولكننى لو خيرت بين أن أكون جهازًا كاملا للمعرفة ولا أخلق أو أن أكون جهازًا ناقصًا وأخلق فإنى أفضل الثانى...

ــ ألم يسبق لك أن تعاطيت المخدرات ؟

ــ لا ..

ــ ألم تصادفى أحدًا يغريك بهذه التجربة ؟

ــ صادفت طبعًا ... ولكننى قاومت الإغراء .. خفت أن أقع أسيرة هذه العادة ..

ــ إذن أنت تحافظين على القيم ؟

ــ طبعًا .. القيم الصالحة للبقاء ..

ــ أنت إذن لديك روح المحافظة ؟

ــ نعم ..

ــ كيف تتفق إذن روح المحافظة مع روح التدمير ؟

ـــ لا أدرى ..

ـــ أشكرك ..

التفت المحامى نحو المحلفين وقال :

ـــ نحن ندرى الآن ... ندرى أن موكلتى فى حقيقتها وأعماقها محافظة ، ولا يمكن لمثلها أن يعرف التخريب أو يقصد التدمير .. ولا حاجة لى أن أتكلم أكثر من ذلك... فإجابتها أمامكم واضحة ولا يمكن أن تصدر عن شخص يوصف بما وصفها به الادعاء ..

وعاد المحامى إلى مكانه .. ورأى القاضى أن المدعى العام قد لزم الصمت ولم يطلب العودة إلى سؤال المتهمة ، فأشار إليها بترك مقعد الشهادة .. ورفع الجلسة على أن تعقد فى اليوم التالى ..

وفى اليوم التالى عدنا لنجد فى انتظارنا مفاجأة أدهشتنا وأدهشت الحاضرين .. فقد أحضر المدعى العام شاهدًا لم يكن فى الحسبان وطلب من المحكمة سماع أقواله . كان هذا الشاهد قسيسًا .. تكلم وقرر أن المتهمين الرجلين جاءا إليه ذات يوم منذ ثلاثة شهور ليعقد بينهما الزواج !.. كما أنه فى نفس اليوم حضرت

إليه المتهمتان المرأتان وطلبتا نفس الأمر ، وهو عقد الزواج بينهما وقد رفض هذا النوع من القران الذى يجمع بين اثنين من نفس الجنس .. وعندئذ قام المدعى العام يناقشه قائلا :

ـــ هل تعتبر هذا النوع من الزواج مخالفًا للدين ؟

فأجاب :

ـــ ومخالف لقوانين الدولة ، ولأخلاق المجتمع ..

ـــ وما هو غرض المتهمين من هذا التصرف ؟

ـــ لا أدرى .. إنه تصرف شاذ على كل حال ..

ـــ هل يقصدون بهذا التصرف الشاذ هدم القيم ؟

ـــ هذا فعلًا هدم للقيم ...

ـــ شكرًا ..

وجعل المدعى العام يعلق على ذلك قائلا :

ـــ لا شك أن ما سمعناه الآن من القس المحترم ينفى نفيًا قاطعًا ما سمعناه بالأمس من الدفاع عن محافظة المتهمة على القيم .. وأن المتهمين الذى تبلغ بهم الجرأة أن يقدموا على تصرف شاذ كهذا فيه تخريب لأفكار المجتمع ، لا يستكثر عليهم تخريب تمثال الحرية أو

حرق مكتبة الكونجرس !..

وعندئذ قام محامى المتهمة الثانية يطلب سماع أقوالها مرة أخرى كشاهدة .. فنهضت وجلست فى كرسى الشهادة .. فسألها :

ـــ قلت لنا بالأمس أنك تحافظين على القيم فكيف تفسرين هذا التصرف الذى سمعناه الآن ؟

فأجابت بغير تردد :

ـــ ما قلته بالضبط هو أنى أحافظ على القيم الصالحة للبقاء ..

ـــ وما هو المقياس لما يصلح للبقاء وما لا يصلح ؟

ـــ ما لا يصلح للبقاء هو ما يبقى بعد زوال أسبابه ..

ـــ وهل زالت أسباب الزواج بين الذكر والأنثى ؟

ـــ لا بالطبع .. ولكن زالت أسباب التحريم للزواج بين الذكر والذكر وبين الأنثى والأنثى ..

ـــ كيف حدث هذا ؟ أرجوك توضيح هذه النقطة ..

ـــ يجب أن نسأل أولا لماذا شرع الزواج بين الذكر والأنثى . كان الأساس فى ذلك طبعًا هو النسل والتناسل .. فى الماضى كان النسل نعمة .. واليوم النسل نقمة بعد أن هدد الانفجار السكانى

العالم بالكوارث .. وفى مجتمع النسل الذى عاش آلاف السنين كانت التشريعات تقوم على حماية النسل والحض عليه فكان من الطبيعى أن يفهم الزواج على أنه المؤدى إلى النسل .. وهذا لا يكون إلا بالجمع بين الذكر والأنثى .. وحورب كل اقتران آخر لا يؤدى إلى التناسل خوفا من التناقص .. فى زمن كان التكاثر هو مفخرة الأسر والقبائل والأمم .. أما اليوم فالأمر قد اختلف .. وبعد مجتمع النسل أصبحنا فى مجتمع تحديد النسل فما هو إذن وجه التحريم لقران لا يؤدى إلى نسل ؟ إذا كانت أسباب التحريم قد زالت فلماذا يبقى التحريم ؟

— ولماذا أردت الزواج من زميلتك ؟

— هذه رغبتنا المشتركة...

— أهى المعاشرة الجنسية ؟

— لو كانت المعاشرة الجنسية لاستمرت فى الخفاء ، ولما كانت هناك ضرورة لإعلانها .. ولكننا أردنا أن نقيم علاقتنا على أساس شرعى تأكيدًا وإظهارًا لرغبتنا فى ضرورة إعادة النظر فى أسباب التشريع وأصول الشرائع ...

ــ هل كان ذهابكم أنتم الأربعة لعقد هذا القران فى نفس الوقت بناء على اتفاق سابق بينكم ؟..

ــ نعم .. لقد خطرت لنا الفكرة ونفذناها معًا ..

ــ هل كنتم تقصدون تحدى القوانين ؟

ــ لا .. كنا نقصد فقط لفت النظر إلى زوال أسباب هذه القوانين .. وأن عصرنا يجب أن يعيد فيها النظر ...

ــ ولماذا اخترتم قانون الزواج بالذات ؟

ــ لأنه أشدها لفتًا للنظر .. هناك قانون آخر أقل شأنًا .. هو تحريم الإجهاض .. وذلك فى وقت يشجع فيه تناول أدوية منع الحمل .. أيوجد تناقض أكثر من هذا ؟ ولكنه جبن المجتمع عن إلغاء تحريم قديم ..

ــ ما هى أسباب هذا الجبن للمجتمع ؟

ــ خوفه من مناقشة المسلمات ... وعجزه عن التحرر من العادات ..

ــ إذن كان غرضك هو الدعوة إلى مناقشة المسلمات والعادات ؟

— نعم ..

— ولكن الادعاء يعتبر هذا الفعل من قبيل هدم قيم المجتمع ؟

— إذا لن تكن هناك مناقشات حرة للمسلمات والعادات فكيف تنتقل البشرية من مجتمع إلى مجتمع ؟ إن الديانات السماوية لم تقم إلا على أساس الدعوة إلى مناقشة المسلمات والعادات الراسخة فى العهود الوثنية ..

— أنت تعتبرين إذن مناقشة المسلمات عملا مشروعًا ؟

— نعم ... وأكثر من ذلك .. هو ضرورة اجتماعية .. ونحن الآن فى صدد التمهيد لمجتمع القرن الحادى والعشرين فلابد من مناقشة المسلمات التى لا يناقشا أحد .. ونفحصها بحرية وعناية لنرى هل أسبابها موجودة أو زالت أو ضعفت ولكنها هى بقيت بالعادة ورسخت بالتحجر والتقديس العقيم الذى يشبه الوثنية .. كانت الوثنية تقديس الأحجار .. ونحن نقدس الأفكار ..

— إذن لم يكن قصدك الإضرار بالمجتمع ؟

— بالعكس ..

— أشكرك ..

وتركها قائلا للمحلفين :

— أيؤخذ من هذه الأقوال أن موكلتى من طائفة المخربين أو هى من طائفة المصلحين ؟ أرجو أن تكون قد زالت من أذهانكم الصورة القاتمة التى أراد أن يصبغها بها الادعاء ..

وقام الادعاء يستجوب بدوره المتهمة مستهلا كلامه بالسخرية من كلمة المصلحين .. وسأل المتهمة :

— هل تعترفين بوجود الأخلاق ؟

فقالت :

— بالطبع أعترف ..

— بماذا تصفين إذن من يخرب عامدًا هذه الأخلاق ؟

— لا أريد أن أكرر ما سبق أن قلت ، وهو أنه يجب أولا تحديد معنى الكلمات ولا سيما الكلمات الكبيرة .. فإن أكبر الأخطاء تأتى من إطلاق كلمة ضخمة نسلم بها قبل أن نفحصها ... ما هو المقصود بكلمة الأخلاق ؟

— هو ما تعارف عليه المجتمع أنه من أخلاقياته ..

— يجب أيضًا أن نحدد ذلك المجتمع بأنه مجتمع بالذات فى زمن

بالذات .. فقد كان من أخلاقيات زمن مضى ومجتمع مضى أن المرأة التى تدخن ليست فاضلة والتى تسير بغير قبعة تعتبر مستهترة ، وأن لباس السهرة الرسمى للرجل هو الفراك وصدر القميص الأبيض المنشى الذى يخنقه طول الليل ، فى حين أن ثوب المرأة الرسمى هو العارى الصدر والكتفين والظهر .. ومن يذهب إلى حفلة رسمية بغير ذلك يعتبر خارجًا على الآداب واللياقة وحسن السلوك ..

وهنا علت أصوات الضحك من الحاضرين مما اضطر القاضى إلى الدق بمطرقته ليعيد النظام .. وبدا الامتعاض على وجه المدعى العام ، وقد رأى المتهمة تخرج بالإجابة إلى مجال لا يريده ..

فأسرع يقول لها :

ـــ أنت تعرفين أننا نتكلم عن مجتمعنا الحاضر ، وأنت تخرجين على قوانين هذا المجتمع ، فهل أنت معترفة بذلك ؟

ـــ أرجو أن تحددوا لى هذه القوانين التى يقال أنى خرجت عليها .

ـــ أولًا شروعك فى تخريب تمثال الحرية ..

— إذا اقتنع المحلفون واقتنعت المحكمة بأنى مذنبة وكان قصدى فعلاً التخريب فأنا مستعدة للجزاء ..

— ثانيا اعترافك بالذهاب إلى القسيس ليعقد زواجًا غير شرعى على زميلة لك ؟

— وما هى الجريمة فى هذا ؟ إننا لم نفعل شيئًا فى السر .. ولم نزور شهادة ... ولم نستعمل ضغطًا ولا إرهابًا .. لقد ذهبنا فى وضح النهار ، وبكل لطف وأدب نسأل القسيس أن يعقد هذا القران ، فامتنع وأفهمنا أن هذا لا يجوز فانصرفنا وانتهى الأمر عند هذا الحد من جانبنا وقد اعتقدنا أن القس من جانبه سيبلغ الجهات المختصة ويحدث الدوى الذى قصدناه ..

— إذن لقد اعترفت الآن أمام المحكمة أن غرضكم من هذا هو التظاهر ولفت الأنظار إلى أنكم تريدون هدم القيَم التى يدين بها المجتمع ..

— وماذا فى لفت الأنظار ؟ أليس هذا من حقنا ؟

— هل من حقكم الترويج لفكرة هدم القيم ؟

— أليس من حقنا فحص وتمحيص حقيقة هذه القيم ؟

ـــ من الذى أعطاكم هذا الحق ؟

ـــ العقل الذى فى رؤوسنا يفكر ..

ـــ إذا كان كل فرد يعطى لنفسه الحق فى الإخلال بالنظام المعمول به لخرب كل شيء ..

ـــ أحيانًا لا يكون فى ذلك خراب بل صلاح ..

ـــ كيف يكون هذا ؟

ـــ كان مثل هذا فى يوم من الأيام ، دخل المسيح المعبد وطرد التجار ، واعتبروا ذلك وقتئذ إخلالاً بالنظام المعمول به فى مجتمع ذلك العهد ..

ـــ وهل المسيح فرد عادى ؟

ـــ فى نظر مجتمعه كان كذلك ... الناس والسلطات .. أكثرهم كان يعتبره فردًا عاديًا ..

ـــ وماذا كانت النتيجة ؟ ألم يقبضوا عليه ويقدموه إلى المحاكمة ثم إلى الصلب كأى فرد من الأفراد ؟

ـــ بعد أن أدى رسالته ..

ـــ وما هى رسالته ؟

ــ الحب والسلام بين البشر ..

ــ هل تؤمنين بالمسيح ؟

ــ بالطبع .. لأنى أؤمن بالحب والسلام ..

ــ وهل تؤمنين بتعاليم الكنيسة وقوانين المسيحية ؟

ــ من آمن بالحب والسلام فقد آمن بكل شىء .

ــ لا تتهربى من السؤال .. أريد إجابة محددة : هل تؤمنين بالقيم السائدة فى المجتمع طبقًا لتعاليم الكنيسة ؟

ــ لا تخيفونا دائمًا بكلمة القيم .. نحن لا نعرف غير قيمة واحدة هى : عدم الإضرار بأحد ، والامتياز فى عمل ينفع الآخرين ..

ــ مثل التفكير فى حرق مكتبة الكونجرس ؟

وعندئذ صاح محامى المتهمة محتجًا .. وعنف الادعاء لتلميحه المستمر إلى كلمة بدرت من موكلته عن خطرة من الخطرات لم تأخذها على سبيل الجد .. وطالبه بمراجعة المستندات التى فى ملف الدعوى ومنها شهادات التفوق والامتياز فى الدراسات الجامعية وشهادات الثناء والتقدير من رؤوسائها فى العمل بمكتبة

الكونجرس ..

فأطرق المدعى العام قليلا .. ثم رفع رأسه واستأنف الاستجواب قائلا :

ـ ليس هناك اعتراض على امتيازك الدراسى والعملى .. ولكن الاتهام موجه إلى انحرافك الاجتماعى ..

ـ عندما يكون المجتمع نفسه منحرفًا فكل شيء فيه يبدو كذلك ..

ـ ولماذا لا تكونين أنت المنحرفة وترين المجتمع كذلك ؟

ـ على هذا المجتمع إذن أن يثبت أنه لم ينحرف إلى العدوان ، وأنه ليس مجتمعا عدوانيا خطرًا على سلام البشرية ..

ـ إذا كنت ترين من حقك أن تكيلى التهم لهذا المجتمع ، وأن تعملى مع غيرك من الشباب المنحرف المتهور على تخريب أسسه وتدمير قيمه ، أليس من الواجب الضرورى على هذا المجتمع أن يطاردكم بشتى الوسائل ويزجركم ويعاقبكم ويردكم إلى الصواب ...

ـ الصواب ؟ أى صواب ؟.. ما من أحد يثق فى صواب يأتى

من مجتمع دمّر ثقتنا فيه ، وجعل آفاق مستقبلنا حمراء بالدماء. كل أزمة العصر أننا فقدنا الثقة ..

ـــ ألا ترون أنكم ضحية تدليل المجتمع لكم أكثر مما ينبغى ، وأن الطريقة الوحيدة لإصلاحكم هى أخذكم بالشدة ؟

ـــ ونحن ننتظر آملين هذه الشدة ؟

ـــ آملين ؟ ما معنى ذلك ؟..

ـــ معناه أن أى مقاومة لنا لن تفلح ، بل ستؤدى إلى زيادة الثورة عليكم ، ثم إلى الانفجار ...

ـــ أتظنون أن القمع والعقاب لا ينفع ؟

ـــ جربوا .. ضعونا على الصليب كما وضعوا المسيح : لقد رفعوه على الخشبة فرأته البشرية كلها وستظل تراه وتسمع صوته وهو يقول « يا رب اغفر لهم فهم لا يعرفون ما يفعلون » .. وسنقول نحن أيضًا : «اغفر لأهل عصرنا ، فهم لا يعرفون فى أى مجتمع يعيشون » ..

ـــ ألا شىء يعجبكم على الإطلاق فى هذا المجتمع ؟ أكل شىء فيه تريدون رجمه بالحجارة ؟

ـــ لا ... أبدًا ... هناك أشياء عظيمة وجميلة لابد من صيانتها ونقلها إلى الأجيال الجديدة والعصر الجديد ، والقرن الحادى والعشرين ...

ـــ ومن الذى يصونها وينقلها ؟ هذه الأجيال الجديدة من الشباب الضائع المخدر المستهتر المخرب المتصعلك الهائم النائم فى الطرقات ؟

ـــ هؤلاء كما قلنا هم الطلائع المضحاة ، هم فرق الانتحار .. هم الطيور المهاجرة التى تسقط فى البحر ليصل غيرها سالمًا إلى البر .. هم الذين يتقدمون فى كل ثورات التاريخ برفع رايات العصيان ويطلقون الصيحات الأولى المشوشة والشعارات المتطرفة وتختلط عندهم الأفكار الجريئة بحركات الشغب الطائشة .. الغوغائية .. ولكن بعد ذلك هى الثورة ..

ـــ ماذا تقصدين بالثورة هنا ؟

ـــ أقصد ثورة الشباب الحقيقية ، التى بدأت ببعض المظاهر ككل الثورات وبرفض الوصاية على أسلوب حياتهم الجديدة ، ليشعروا أن شيئًا قد تغير ، ويشرعوا بعد ذلك فى حمل مسئولياتهم

الكبرى لتغيير وجه العالم ..

— وكيف يغيرون وجه العالم ؟ بتخريب ملامحه ؟

— نعم .. ملامحه القبيحة السيئة .. يجب أن تتذكروا أن هذه الأجيال الجديدة التى تشاهدونها تمرح فى الظاهر كما تشاء ، هى فى الباطن تلك التى تملأ مقاعد الجامعات والمكتبات وتنكب تبحث فى المعامل تحت العدسات .. وهى التى ستجرد وتفحص كل منجزات البشرية العظيمة النافعة لتزيد عليها وتنقلها إلى القرن الحادى والعشرين .. كل ما تطلبه منكم أن تتخففوا قليلا من عقدة الوعظ والزجر ومن شهوة البطش والقهر .. فالأجيال الجديدة فيها غريزة البقاء الحضارى ، وتعرف واجبها فى المحافظة على حضارة الإنسان والاستمرار بها فى طريق التطور والتقدم بأسلوب حياتها هى الجديدة لا بأسلوب حياتكم أنتم !..

— إنك لم تردى على التهمة بل تحاولين التهرب بالكلام الخطابى .. باختصار هل أنت معترفة بالشروع فى تخريب تمثال الحرية ؟ أجيبى بنعم أو بلا !..

— لا ..

— يكفى هذا.. شكرًا ..

والتفت إلى المحلفين وقال :

— إن المتهمة كما لاحظتم تصر هى وشركاؤها على تكذيب الوقائع الملموسة وتغليف الجريمة بستار من دخان العبارات الرنانة .. وهم يرددون أن القضية هى قضية القرن الحادى والعشرين .. ولكن الحقيقة أنها قضية تخريب المجتمع الإمبريالى الرأسمالى .. مجتمعكم ، مجتمعنا الذى نشأنا فيه ، ويجب أن تتذكروا ذلك ..

ورفع القاضى الجلسة على أن تستأنف فى اليوم التالى ..

ولكننى فى اليوم التالى لم أستطع النهوض من فراشى .. فقد مرضت بفضل الأكل فى المطاعم الأمريكية الذى لم تتقبله معدتى . وما أن رأيت صاحبى الصحفى حتى صارحته برغبتى فى العودة إلى بلدى بأول طائرة .. فحاول إقناعى بالانتظار حتى نعرف الحكم فى القضية .. فقلت له إن الحكم لا يهمنى — والمهم عندى هو القضية نفسها .. وقد عرفت منها أشياء كثيرة .. فامتثل .. وقام يحجز لى مكانًا بالطائرة ، وودعنى بحرارة .. ولم يمض قليل

حتى كنت أحلق فى الجو فوق تمثال الحرية وأسترجع ما دار بشأنه من كلام .. ووصلت إلى وطنى بسلام .. وما أن استعدت بعض الصحة حتى أمسكت بالقلم وشرعت أدون فى هذه السطور ما رأيت وما سمعت ..

* * *

فهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣٣٤ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٦ — ٠٣٩٤ — ١١ — ٩٧٧

SS

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش